أشهرُ وأغربُ قَصصٍ عبرَ العصورِ

خَفَايَا القُصُورِ

عشق قاتل - دسائس - نوادر - أحداث عجيبة غريبة

تأليف

حبيب جاماتي





الغلاف

اسم الكتاب: **خفايا القصور عبر العصور**
تأليف: **حبيب جاماتي**
المراجعة اللغوية والتدقيق: **طه عبدالرءوف سعد**
تصميم الغلاف: **قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي**
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **٣١٧٩ / ٢٠١٢**
الترقيم الدولي: 978-977-376-705-1

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٦٧٠
دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النوري - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦
- فرع ثاني - ت: ٢٢٢٢٣٧٣



الطبعة الأولى
٢٠١٢

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تليفون: ٢٣٩١٦١٢٢ - فاكس: ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ٠٥/٤٣٤١٨٦ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yahoo.com - daralwalid@yahoo.com - info@darketab.com
www.darketab.com http://www.facebook.com/groups/darketab
http://twitter.com/darelkitab http://www.youtube.com/darelkitab

خفايا القصور

أشهر وأغرب قصص عبر العصور

إهداء

لقد أمدني شيخ العروبة أحمد زكي باشا، رحمه الله، بكثير من موضوعات هذا الكتاب.

ووجدت في مكتبة المرحوم شارل جلياردو بك، مؤسس متحف بونابرت بالقاهرة، ينبوعاً زاخراً اغترفت منه ما كنت في حاجة إليه من تفاصيل لوضع هذه الأقاصيص التاريخية.

وقد انتقل الأول إلى جوار ربه تاركاً مصنفات لم يفكر أحد بعد في طبعها، وفي إهمالها خسارة كبيرة على مصر والعالم الإسلامي.

ومات الثاني قبل أن يقطف ثمرة جهاده في سبيل مصر والشرق، ونقلت محتويات متحف بونابرت الذي أسسه بالقاهرة إلى فرنسا بأمر من الحكومة المصرية، التي فقدت بعملها هذا ثروة تاريخية وأدبية لا تعوض.

فإلى روح العالم المصري أحمد زكي باشا وإلى روح العالم الفرنسي شارل جلياردو بك.

أهدي هذه المجموعة من الأقاصيص التاريخية، التي يعود إليهما الفضل الأكبر في وضعها وإذاعتها.

وعلى الروحين الطاهرتين الرحمة!

ح.ج

حبيب جاماتي

مقدمة

إن هذه المجموعة التي أقدمها اليوم إلى القراء: هي الحلقة الثالثة من سلسلة الأقاصيص التي أنشرها من سنوات بعنوان «تاريخ ما أهمله التاريخ» وقد سبقتها مجموعتان:

«الضحايا» التي تولت طبعها شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده و «إبراهيم في الميدان» التي أصدرتها دار الهلال في العام الماضي وقد اخترت لهذه المجموعة الثالثة اسم «خفايا القصور» لأنني ضمنتها أقاصيص غرامية وسياسية واجتماعية وقعت حوادثها في قصور السلاطين والملوك والأمراء، في مختلف عصور التاريخ.

ولا يسعني إلا أن أكرر هنا ما قلته غير مرة، ردًا على أسئلة القراء عن مبلغ الحقيقة التاريخية في هذه الأقاصيص، فأقول:

فإن ما أضعه بين يدي القارئ ليس بحثاً تاريخيًا، وليس قصة خيالية، بل هو مزيج من الاثنين معاً.

فالقارئ يجد فيه فائدة، ويجد فيه تسلية.

وهذا جُل ما أرجوه وأرغب فيه.

وأملي أن أكون قد وُفقت في خدمة التاريخ والأدب من هذا السبيل.

حبيب جاماتي

القاهرة - ذو الحجة ١٣٥٤ - مارس ١٩٣٦

الراقصة المتوَّجة

بدا قصر فرعون في ذلك اليوم البهيج في حُلة من الزينة تبهر الأبصار، وتأخذ بالألباب، وخرج الشباب إلى الشوارع والميادين، وأحاط بالقصر الملكي ينظر إلى الحراس الكثيرين، وقد تفرقوا على الأبواب، ويصغي من بعيد إلى الألحان العذبة والأنغام الشجية المتصاعدة من وراء الجدران العالية، وينثر الأزهار ويلوح بالرياحين كلما اخترق صفوفه كاهن من الكهنة، أو عظيم من العظماء، أو قائد من القواد، في طريقه إلى المقر الملكي، حيث أقام فرعون حفلة سمر وطرب، دعا إليها رجال مملكته الأمناء، وأصحاب الرأي النافذ فيها.

وتربع أمنحوتب الرابع في سريره الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة، وأحاط به المدعوون إحاطة السوار بالمعصم، بينما المغنون يطربون الملك بأناشيدهم الجميلة، طالبين من أمونَ أن يطيل ملكه ويزيده مجداً على مجده وجاهاً على جاه.

وجلست بجانب الملك أمه النبيلة الذكية مسموعة الكلمة، الملكة تي زوجة أمنحوتب الثالث العظيم، القوي الشجاع، الذي لم يطلق في حياته من القوس سهماً طائشاً، والذي روع الجيوش في الميادين والسباع في الغابات، فدوِّن اسمه في التاريخ كأمهر صياد عرفه الناس قديماً وحديثاً، وقتل في الصحارى والأدغال والهضاب مائة واثنا عشر أسداً في عشر سنوات، فضلاً عن الذئاب والفهود والثعالب والصقور.

وكان ابنه أمنحوتب الرابع يعلل النفس بالسير على منهاج أبيه في تدويخ الممالك وإخضاع الشعوب، ولكن بطريقة غير التي عمد إليها أبوه، وبسلاح غير الذي كان فرعون العظيم يشهره في وجه أعدائه.

كان أمنحوتب الثالث يخضع أعداءه بنصال السيوف وأسنة الرماح وسهام الأقواس، أما أمنحوتب الرابع، فقد فكر في إخضاعها بواسطة دين جديد وعقائد مبتكرة تقوم على أنقاض الدين القديم والعقائد البالية.

وهو الذي قوض سلطة الكهنة فيها بعد وهجر معابد آمون، وأقام لآتون معابد جديدة، فحمل منذ ذلك الوقت اسم أخناتون بدلاً من أمنحوتب.

أما تلك الحفلة التي كان يحييها، والتي دعا إليها الرجال البارزين في مملكته، فقد أعدها لاستقبال رسول دشراتة، أحد ملوك سوريا.

أرادت الملكة تي، أم الملك أمنحوتب، أن يتخذ ابنها زوجة له من بنات الملوك التابعين له الخاضعين لتاجه، وكانت ترمي بذلك إلى ضمان خضوع تلك الشعوب البعيدة، التي كانت كلما سنحت لها الفرصة تشق عصا الطاعة على فرعون وتمسك عن دفع الجزية.

وكان للملك دشراته ابنة فاتنة الحسن ذاع صيتها في الأقطار شرقاً وغرباً، أرادت الملكة أن يتزوج ابنها بتلك الفتاة الجميلة، وبعثت إلى الملك دشراته تبلغه بذلك، فأجابها إلى طلبها، وأوفد رسوله إلى فرعون يحمل إليه الهدايا ويقطع له عهداً باسم سيده دشراته بأن تكون ابنته «تادوو» زوجة لأمنحوتب وملكة على مصر.

***

أفضى الرسول إلى فرعون بمضمون رسالته، ووضع بين يديه الهدايا التي عهد إليه سيده في حملها إلى مصر، فتقبلها أمنحوتب مبتسماً شاكراً، وأمر حجابه بأن ينزلوا الرسول وصحبه ضيوفاً مكرمين في قصره، ودعا الرجل إلى أخذ مكانه بين الحاضرين، وأشار إلى رئيس «التشريفات» بإدخال الراقصات.

فدخلن، وكن عشراً تليهن عشرات فعشرات.. وجعلن يعرضن على الملك وحاشيته وضيوفه آخر ما وصل إليه فن الرقص في ذلك الوقت من سحر وإبداع. ثم خرجن الواحدة بعد الأخرى، وبقيت منهن راقصة أرادت أن ترقص أمام الملك بمفردها، بعد أن كانت تشرف على زميلاتها، وتدير حركاتهن، وتقضي بدخولهن وانصرافهن من حضرة فرعون.

وبينما أنظار جميع من حضروا ذلك المجلس متجهة إلى تلك الراقصة البارعة

الجميلة، وقد أخذوا بحسنها وخفتها، ومهارتها، أشار فرعون إلى أحد حجابه الأمناء، فاقترب الحاجب من العرش، وهمس أمنحوتب في أذنه.

- جئني بهذه الراقصة بعد انصراف المدعوين!

مثلت الراقصة بين يدي فرعون، خائفة مرتعدة، ظناً منها أن الملك غاضب عليها وأن رقصها ورقص زميلاتها لم ينل حظوة في عينيه.

ولكن الملك كان يبتسم، وجعل يخاطبها بلهجة أعادت الطمأنينة إلى نفسها المضطربة، فأدركت أن مخاوفها لم تكن في محلها، وأن فرعون العظيم لم يبعث في طلبها إلا لأنه يريد بها خيراً.

وسألها ببشاشة ولطف:

- لم أرك قبل الآن بين الراقصات في القصر، هل قضيت زمناً طويلاً هنا؟

- قضيت بضعة أشهر يا مولاي.

- أتحبين الرقص؟

- أحبه إلى حد الجنون، وقد رغبت فيه ومارسته بالرغم من أن البيئة التي أنتمي إليها لا يسمح فيها للبنات بمزاولة الرقص.

- أنت إذاً من الأشراف؟

- نعم يا مولاي.

- ما اسمك؟

- نفرتيتي.

- نفرتيتي! اسم جميل يرن في الأذن رنة طرب، كأنه نغم قيثارة تضرب أوتارَها أناملُ الحسان.

سكتت الفتاة، وحاولت أن تحول نظرها عن نظر فرعون. لكن أمنحوتب نهض من مكانه، وأخذ رأسها بين يديه، وحدق إليها البصر، وقال بلهجة حارة:

- نفرتيتي! ستتوَّجين ملكة على مصر!

قامت الفتاة بتقبيل يدي فرعون العظيم وهي تضحك وتبكي في وقت واحد، وقد أوشكت تلك الكلمات التي تساقطت من فم الملك أن تفقدها الرشد والإدراك، وجعل أمنحوتب يداعب جدائل شعرها الناعم بين أنامله، ويقول مردداً:

- ستتوجين ملكة على مصر، فاذهبي، وتطيبي، وانتظري ما يحمله إليك الغد من مسرات وسعادة ومجد وهنا! ستتوجين ملكة على مصر! ستتوجين ملكة على مصر!

***

حاولت الملكة تي أن تثني وحيدها عن عزمه، وأن تحمله على احترام العهد الذي قطعته باسمه للملك دشراته وبنته تادوو، وأن تقنعه بأن زواجه من راقصة قد يجر عليه مصاعب ومشاكل هو في غنى غنها، وأن رئيس الكهنة لن يرضى بذلك الزواج، وأن المستقبل سيكون مثقلاً بالحوادث الجسام إذا ظل الملك الشاب على رأيه. لكن أمنحوتب أبى إلا أن ينفذ ما عزم عليه، وكان يجيب على نصائح أمه بهذه الكلمات التي لم تتغير ولم تتبدل:

- ستتوج نفرتيتي ملكة على مصر!

***

لم يمض سوى شهر واحد على ذلك اليوم الذي وقع فيه نظر الملك على الراقصة نفرتيتي للمرة الأولى، حتى وصل إلى طيبة موكب فخم، يتقدمه الجنود حاملين الرماح والأقواس، ويحيط به من كل جانب العبيد والخدم حاملين الهدايا والعطور، ويتوسطه هودج من الذهب الخالص، قائم على مركبة تجرها الجياد، وقد تربعت فيه، على وسائد حمراء مزركشة بالخيوط الذهبية، فتاة ينطبق عليها المثل السوري الغارق في القدم: «تقول للبدر قم ودعني أحتل مكانك!».

ذلك هو الموكب الذي أرسله الملك دشراتة إلى طيبة، وتلك هي ابنة الملك تادوو

التي أعدها أبوها زوجة لفرعون، والتي أعرض عنها أمنحوتب وفضل عليها راقصة في قصره تدعى نفرتيتي.

أمر فرعون بأن يكون استقبال ابنة الملك السوري بالغاً منتهى الحفاوة، وأن تحل ومن معها في القصر الملكي في جناح خاص. ولكنه أبى أن يراها وأن ينفذ ما جاءت الفتاة لأجله من عند أبيها.

مر أسبوع وتلاه أسبوع آخر ومرت أسابيع فشهور، والملك باق على عزمه، مصر على ما أبداه لأمه، دون أن يؤثر فيه إلحاح الكهنة أو ينال منه تهديدهم.

واضطرت الملكة تي أن تعيد الفتاة إلى أبيها الملك دشراته، مع رسول يقول إن فرعون مريض وإن مرضه يحول دون زواجه.

وفي الوقت الذي كان الرسول يفضي برسالته إلى الملك دشراته، محاولاً إقناعه بأن أمنحوتب لن يقدم على زواج ولن يتخذ له امرأة، كان القصر الملكي في طيبة يشهد حفلة زفاف بسيطة لا تتفق مع عظمة التاج.

وفي تلك الساعة التي كانت فيها الأميرة تادوو تنتحب بين يدي أبيها وتشكو إليه ما حل بها في مصر من خيبة الأمل، وما آل إليه حظها، كانت نفرتيتي الراقصة في القصر تضع على رأسها تاج الملك الذي وعدها به فرعون الشاب!

***

ومات أمنحوتب في الثلاثين من عمره، بعد أن أحدث في مصر ذلك الانقلاب الديني الهائل، واتخذ لنفسه اسم أخناتون.

ورزق من زوجته نفرتيتي سبع بنات تزوجت الثانية منهن شابًا من أشراف القصر يدعى توتو.

وهو الذي عرف فيما بعد باسم توت عنخ أمون!

معتوقة كليوباترا

أشارت كليوباترا إلى الإماء والعبيد بالانصراف، فسجدوا إلى الأرض في حضرتها، ثم تواروا وراء سجف الأعمدة والجدرن، وبقيت ملكة مصر الفاتنة الساحرة مع وصيفتها المعتوقة سيدونيا، في القاعة الواسعة الأرجاء.

وقالت كليوباترا:

- لقد مللت الانتظار، وضاق صدري ولم أعد قادرة على الاحتفاظ بالسر الذي أكتمه عن الجميع!

فقبلت الفتاة قدم مولاتها ومالت برأسها على ركبة كليوباترا وقالت:

- أي سر تعنين أيتها الملكة السعيدة، أتسمحين لهذه العبدة الطائعة، والخادمة الأمينة، المدينة لك بالحياة، بأن تستطلع مكنونات صدرك وتخفف إن استطاعت من كآبتك؟

- إنني أحبك كثيراً يا سيدونيا ولا إخالك تشكين في عطفي، فقد أطلقت حريتك، وحطمت قيود الذل والعبودية التي ورثتها عن أبيك وأمك. فأصبحت منذ سنة كاملة معتوقة حرة طليقة، شأنك في هذا القصر وفي هذا البلد شأن الأحرار لا شأن الإماء والعبيد، وقد رغبت إليك في اختيار الرجل الذي تريدينه زوجاً لك، فإن وقع اختيارك على أحد الجنود أو على رجل من رجال القصر فهو لك وأنت له، وإن وقع اختيارك على أحد العبيد فإنني أعتقه كما أعتقتك ويصبح لك وتصبحين له.

- نعم يا مولاتي، هذا ما سمعته منك مراراً.. وقد أفضيت إليك أمنيتي منذ أيام وقلت لك إنني أختار النوتي «هامو» زوجاً لي.

- إن هامو عبد أسود، أرسله إليَّ أحد أمراء الأحباش هدية من لدن زوجته،

فاستخدمته في السفن الحربية الراسية في ميناء الإسكندرية، وقد أجبتك إلى رغبتك، وحققت أمنيتك، فمنحت هامو الحرية وأصبح منذ أيام معتوقاً مثلك. فهل أنت سعيدة يا عزيزتي؟

- إنني سعيدة يا مولاتي، ولكن سعادتي لن تكون كاملة إلا إذا رأيتك أنت سعيدة فرحة راضية.

فأمسكت كليوباترا عن الجواب، ووضعت يدها على رأس سيدونيا المعتوقة المخلصة المحبوبة، فرفعت الفتاة نظرها، ورأت دمعتين تنحدران من مقلتي كليوباترا على خديها الورديين. فقالت بصوت مضطرب:

- مولاتي! ما بك؟

فأجابتها الملكة:

- تذكرين يا سيدونيا ذلك القائد الروماني الشاب، الذي رافقني إلى الإسكندرية، ثم رحل عنا على رأس جيشه اللجب لفتح الأمصار وإخضاع الممالك وضم بلاد مادي وفارس إلى أملاك الرومانيين؟

- مارك أنطونيو؟ ومن منا لا يذكره يا مولاتي، ونحن نعلم أنه أصاب حظوة لديك، وأن قلبك يخفق بحبه، ويطير شعاعاً عليه، وأنك ترقبين عودته من يوم إلى آخر؟

- لقد طالت غيبته يا سيدونيا، واعلمي ما لا يعلمه الآن سواي في هذا القصر: أن مارك أنطونيو سيهجر زوجته الرومانية أوكتافيا ويحلني محلها، وسوف نجلس معاً على عرش واحد، يخضع لصولجانه الشرق والغرب!

- أرجو أن تحقق الآلهة آمالك يا مولاتي!

- ولكن أنطونيو أبطأ في العودة وهذا ما يثير شجوني ويبعث القلق إلى نفسي. إني أخاف عليه عاديات الزمان ومكايد الإنسان. فارفعي معي أكف الصلاة للآلهة، ولنضرع إليها طالبين منها أن تحرس أنطونيو في غزواته وحروبه، وفي كره وفره، وفي ذهابه وأوبته!

وسجدت كليوباترا، وسجدت سيدونيا، وارتفع صوت المرأتين في سكون الليل صاعداً إلى مقر الآلهة مسيرة الأقدار، والقابضة على مصير الأخيار والأشرار [كذا]!

***

هجر أنطونيو زوجته أوكتافيا وتزوج كليوباترا، ولكنه لم يجرؤ على المجاهرة بذلك، وإعلان نبأ هذا الزواج في روما، خوفاً من هياج الرأي العام عليه، وانصراف الأنصار والأعوان عنه.

وكان خصمه وغريمه أوكتافيو، شقيق زوجته أوكتافيا، يسعى إلى هلاكه بجميع الوسائل المتوفرة لديه، انتقاماً لأخته من ناحية، وطمعاً في الاستئثار بالسلطة دون أنطونيو من ناحية أخرى، فجعل هذا العدو العنيد يعمل على حمل أنطونيو على المجاهرة بأمر زواجه، والاعتراف أمام الرومانيين بأنه هجر زوجته الرومانية الأصيلة، لكي يحل محلها الملكة كليوباترا.

وسعت كليوباترا من ناحيتها إلى حمل أنطونيو على إعلان خبر زواجها، لكي تبرر موقفها أمام رعيتها، فاضطر القائد الشاب في النهاية إلى الخضوع لأحكام الضرورة القاضية.

وفي سنة ٣٦ قبل الميلاد، أذاع أنطونيو في طول البلاد وعرضها من أطراف مصر إلى تخوم الدولة الرومانية، أنه أصبح زوجاً لكليوباترا ملكة مصر، وأن كليوباترا حلت بجواره محل زوجته المهجورة الرومانية أوكتافيا.

ومنذ ذلك الوقت جعل الرومانيون ينظرون إليه بعين الحذر والغدر، نظرهم إلى روماني عاق خائر النفس، ويلتفون حول أوكتافيو الروماني البار المخلص الأمين!

وأعمى الحب بصر أنطونيو وبصيرته، فلم يدرك الخطر الداهم الذي بدأ يحدق به منذ تلك الساعة التي أذاع فيها ما أذاعه.

وبعد مدة قصيرة، أمام الجموع المحتشدة في ملعب الإسكندرية، نادى مارك أنطونيو الروماني بكليوباترا اليونانية المصرية، ملكة على مصر وقبرص وأفريقيا

وسوريا، وأشرك معها في الملك الفتى قيصرون ابنها من يوليوس قيصر العظيم.

وكان قد استولد الملكة طفلين، فنادى بأحدهما ملكاً على أرمينيا وبارتيا ومادي، وبالآخر ملكاً على فينيقية وليبيا وقليقيا.

فكان جواب روما أن انعقد مجلس الشيوخ فيها، وأعلن على الملأ أن مارك أنطونيو «خائن للوطن!».

وكان ذلك الإعلان نذيراً بالنهاية الفظيعة التي ختمت بها فيما بعد حياة العاشقين!

وبدأ القتال بين أنطونيو وأوكتافيو في سنة ٣٢ قبل الميلاد.

***

أقامت كليوباترا حفلة زفاف رائعة، دعت إليها حاشية القصر والأسر الشريفة في الإسكندرية، وأعلنت فيها زواج وصيفتها المحبوبة، سيدونيا الجميلة، وقدمت للمدعوين الرجل الذي وقع عليه اختيار الفتاة: هامو العبد الحبشي، الذي رفعته الملكة بإرادتها السامية إلى مصاف الأحرار والنبلاء!

وأراد مارك أنطونيو من ناحيته أن يكافئ معتوقة عشيقته على إخلاصها وتفانيها في خدمة كليوباترا، فعين زوجها الأسود قائداً لإحدى السفن الحربية الرومانية التي جاء بها إلى مصر.

وكان أنطونيو يدعو زوج سيدونيا الحبشي إلى كل حفلة يقيمها بالقصر. وكانت كليوباترا لا تبدو على سريرها أمام الناس، ولا تأوي إلى خدرها طلباً للراحة إلا والمعتوقة الجميلة بجانبها.

ونعم الزوجان السعيدان، هامو وسيدونيا، بما لم ينعم به إنسان في ذلك العهد، الذي يحق لنا أن نسميه عهد الحب والغرام!

وكانت سيدونيا واسعة الحيلة، تميل دائماً إلى المزاح، وتبتكر لسيدتها وسائل اللهو والتسلية في ساعات الملل والضجر، أو تبحث لها عن منافذ للخروج من المآزق الصعبة، في الأزمات النفسية أو السياسية.

قالت لها كليوباترا ذات يوم:

- حدث أمس يا سيدونيا أن دعاني أنطونيو إلى نزهة على شاطئ البحر في حديقة القصر، فلبيت الدعوة وطفنا معاً في أرجاء الحديقة، وجلنا على ذلك النتوء البارز فوق المياه، والذي تنكسر عليه الأمواج المزبدة، وهناك كاشفني أنطونيو بأمر فوجئت به: كاشفني بالشكوك التي تخالج صدره من ناحيتي، فهو يعتقد أنني أرغب في التخلص منه بأن أدس له السم في الطعام والشراب.. إن أعداءنا يا سيدونيا يحاولون بجميع الوسائل والطرق أن يفرقوا بيني وبين زوجي، وأخشى أن تدب بيننا العقارب، وأن ينتهي غرامنا الجميل بفاجعة تنهار معها سعادتنا!

- ينبغي يا مولاتي أن تنظري إلى الحقائق، وأن تكوني دائماً على حذر، فإن روما تعرف كيف تنتقم من الذين يسيئون إليها، وقد أساء إليها أنطونيو إساءة عظيمة، ولكن مصيرك مرتبط الآن بمصيره، ولابد من الاحتفاظ به، وتغذية الحب في صدره، وحمله على أن يضع فيك ثقته العمياء بلا قيد ولا شرط.

- وكيف السبيل إلى ذلك؟ إن ما أفضى به إلى أنطونيو أمس جعلني أفطن إلى أمر لم أفطن إليه من قبل، أما رأيت كيف إنه، في الولائم والحفلات، يتجنب دائماً أن يمد يده إلى لون من الأطعمة قبل أن أسبقه إليه، ولا يتناول شراباً إلا من الكأس التي أشرب فيها إنه يخشى السم ويخيل إليه أنه في كل طعام وفي كل شراب!

- مولاتي. سوف نلقي غداً على زوجك الروماني درساً يعلم منه أن أشد النساء غباوة في استطاعتها أن تخدع أذكى الرجال وأبعدهم إدراكاً.

***

جلس أنطونيو كعادته كل يوم، مع زوجته كليوباترا، على الشرفة الفسيحة

المطلة على البحر، أمام مخدع الملكة، وحمل العبيد إلى العاشقين ألوان الطعام وأقداح الشراب.

فأكلا وشربا...

وكانت كليوباترا تتناول ألوان الطعام الواحد بعد الآخر، فتأكل منها وتقدم لزوجها، ثم تتناول الأقداح فتشرب وتسقي أنطونيو.

وبعد أن سكر الإثنان بنشوة الخمر، وهاج فيهما الشعور والحواس، أخذت كليوباترا بيمينها كأساً تفيض بالخمر، وتجرعت نصفها دفعة واحدة، ثم نثرت فيها أوراق وردة حمراء كانت تحملها في شعرها، وقدمت الكأس للحبيب العزيز!

فتناول أنطونيو الكأس من يد معبودته ورفعها إلى فمه وهم بشربها.

فصاحت كليوباترا ممسكة بيده:

- لا تشرب يا أنطونيو! أعد إلى هذه الكأس!

فأعادها أنطونيو وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة، ونظر إلى كليوباترا وهو لا يدرك معنى ما تفعل.

وقالت الملكة:

- سيدونيا.. خذي!

فأخذت سيدونيا الكأس من يد مولاتها. ونادت أحد العبيد وأمرته باسم الملكة أن يشرب.

أطاع الرجل صاغراً أمر كليوباترا.

وبعد دقائق معدودة سقط على الأرض وفارقت روحه الجسد!

فطوقت كليوباترا عنق أنطونيو بذراعيها وقالت وهي تغمر رأسه بالقبل:

- أيها المجنون الأعمى! لو أردت التخلص منك لما عدمت حيلة لدس السم لك في الطعام والشراب ولو بواسطة وردة كهذه!

فأدرك أنطونيو أن الوردة مسمومة، وأن زوجته أرادت أن تلقي عليه درساً وتبدد

شكوكه بذلك الدرس!

وفي اليوم التالي قالت كليوباترا لسيدونيا:

- لقد نجحت حيلتك أمس، وكان الدرس رائعاً قاسياً!

***

دارت رحى الحرب بين العدوين اللدودين أوكتافيو وأنطونيو. وسعى كل منهما إلى القضاء على الآخر والاستئثار بالسلطان في الشرق والغرب.

٢ سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد...

التقت سفن أوكتافيو بسفن أنطونيو وكليوباترا في مياه «أكسيوم» على الساحل اليوناني.

وبدأت المعركة...

وإذا بالسفن المصرية تقلع فجأة بعيداً عن دائرة القتال.

وإذا بالسفن الرومانية الموالية لأنطونيو تتبعها وتفر في إثرها.

وإذا بذلك اليوم المشهود يدون في صفحة الخلد من التاريخ، ويفتح أمام أوكتافيو باب المجد على مصراعيه.

وإذا بكليوباترا، بين يوم وليلة، تنقلب على عشيقها وزوجها أنطونيو، وتقيم في سبيله العراقيل وتنصب له المكائد.

كانت تلك اليونانية الساحرة الفاتنة التي تبوأت عرش مصر، قد خدعت من قبل يوليوس قيصر العظيم وأوقعته في حبها ثم خانت عهده.

وخدعت بعده أنطونيو وأوقعته في حبها ثم خانت عهده أيضاً.

وجعلت تفكر بعد أن ثبت لها أن أوكتافيو منتصر وأنطونيو منهزم بلا شك أمام خصمه، في إغواء هذا الخصم والتسلط عليه.

وأدرك أنطونيو الحقيقة المرة، ولكن بعد فوات الوقت.

مرت سنة كاملة منذ اليوم الذي انهزمت فيه سفن كليوباترا وأنطونيو بلا قتال في أكسيوم، والقائد الروماني العاشق يتقلب على نيران الحب والغيرة والغيظ والأسى، وكليوباترا تسحره بألفاظها تارة وتزجره تارة أخرى.

وفي أول أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد، وصل جيش أوكتافيو إلى أبواب الإسكندرية وخرج جيش أنطونيو للقائه.

لابد من القتال، وستكون معركة فاصلة: فإما أن ينهزم الرومانيون بقيادة أوكتافيو فيخلو الجو لأنطونيو، وإما أن ينتصر أوكتافيو فيخضع له الشرق والغرب، ويقضي على أنطونيو وزوجته.

***

- سيدونيا.. تعالي.. لا أريد أن يلحق بي سواك يا صديقتي المحبوبة. هيا بنا إلى ذلك الضريح المظلم.

- وهامو يا مولاتي؟ ألا تسمحين له بالمجيء معنا؟

- ليأت.. وليسرع!

خرجت كليوباترا ومعها معتوقتها سيدونيا وهامو الحبشي الأسود، من القصر الملكي في الإسكندرية في تلك الليلة الليلاء، تحت ستار الظلام الحالك، ولجؤوا إلى الأقبية السوداء التي تضم أضرحة البطالسة آباء كليوباترا وأجدادها.

وسألت الملكة معتوقها هامو:

- هل نفذت أوامري كما أصدرتها إليك؟

- نعم يا مولاتي، إن قواد الجيش وقواد السفن لن يطيعوا أنطونيو ولن يلبوا دعوته إلى القتال.

- إنني خائفة يا هامو، خائفة يا سيدونيا. وأخشى أن يلحق بي أنطونيو إلى هنا،

وينزل بي العقاب الذي أستحقه. فيا له من غرام ينتهي اليوم بهذه الخاتمة المفجعة.

***

قضت كليوباترا ليلتها بين أضرحة الملوك في تلك الأقبية المظلمة.

وتمرد الجيش. وتمرد الأسطول.

وأدرك مارك أنطونيو أن الدائرة قد دارت عليه، فطعن نفسه بسيفه ومات منتحراً.

ودخل أوكتافيو مدينة الإسكندرية ظافراً منصوراً، وأعلن أنه سيجر وراء مركبته ملكة مصر الحسناء مربوطة بشعرها، وأنه سيطوف بها على هذه الصورة في مدينة روما العظمى.

لكن كليبواترا لم تمكنه من نفسها. فماتت من لسعة حية حملها إليها هامو الحبشي الأسود متنكراً في ثوب فلاح.

وفي اليوم الذي ماتت فيه كليوباترا، عثر جنود أوكتافيو، وهم يفتشون القصور والمنازل والأقبية، على جثتين متعانقتين، في ضريح البطالسة: جثة العبد الحبشي المعتوق، هامو القائد البحري، وجثة الجارية المعتوقة سيدونيا الجميلة.

واستولى أوكتافيو على كنوز البطالسة، وأصبحت مصر منذ ذلك اليوم ولاية رومانية على رأسها حاكم روماني.

القمران

شرشل، سيزاريا، قيصرية.. ثلاثة أسماء لمسمى واحد. غير أن الاسم الأول هو الذي تعرف به الآن تلك المدينة الرومانية القديمة الواقعة على شاطىء «الجزائر» الشمالي.

أطلق عليها «جوبا الثاني» ملك موريتانيا «سيزاريا» وترجمته «قيصرية» تخليداً لذكرى سيده ومولاه «أوغسطس قيصر» الروماني. ولا تزال آثار الهياكل والقصور والقلاع التي شيدها ذلك الملك في «قيصرية» عاصمة ملكه باقية إلى الآن في المدينة التي يعرفها الجزائريون الآن باسم «شرشل».

مات جوبا الثاني ملك موريتانيا في العام الثاني عشر للميلاد تاركاً وراءه ذكرى طيبة واسماً عطراً ومؤسسات عديدة ومؤلفات باللغة اليونانية قيمة مفيدة.

وكانت زوجته «كليوباترا سيليني» - أو «الأميرة قمر» - وقد سبقته إلى الآخرة.

وفي اليوم الذي انتقلت فيه «كليوب بطراسيليني» إلى عالم الأرواح رحلت أيضاً عن هذه الأرض الفانية وصيفتها المحبوبة «لونا» أو بعبارة أخرى «قمر».

***

ماتت كليوباترا العظيمة ملكة مصر منتحرة على إثر موت عشيقها «مارك أنطونيو» تاركة بعدها أبناء من آباء مختلفين، بينهم ثلاثة هم ثمرة غرامها الجنوني الذي جر عليها وعلى عشيقها الروماني المصائب والويلات، وهؤلاء الأطفال الثلاثة هم:

ألكسندر هليوس أو إسكندر الشمس - وكليوباترا سيليني أو كليوباترا القمر - وفيلادلف.

ثلاثة أطفال ينطبق عليهم المثل القائل: «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون!».

***

أفل نجم أنطونيو، وفشل ذلك القائد العاشق في ميدان السياسة والحرب، وانهزم في الميادين شر هزيمة، ولم يستطع ثباتاً أمام أوكتافيو شقيق الزوجة التي طلقها أنطونيو وسقاها كأس الهوان حتي الثمالة حبًا بكليوباترا ورغبة منه في التمرغ بين ذراعي تلك الملكة الفاتنة الساحرة.

قطع أنطونيو حبل حياته بيده بعد أن يئس من النصر.

وجاء أحد رجال كليوباترا المخلصين إلى الملكة التعسة بحية مسمومة في سلة مملوءة تيناً. فماتت تلك الميتة ليخلد في التاريخ اسم الحية للمرة الثانية – منذ عهد أمنا حواء!

وفي العام التاسع والعشرين قبل الميلاد عاد أوكتافيو إلى روما سائقاً أمامه الأسرى والسبايا، وبينهم أبناء كليوباترا من عشاقها الكثيرين وفي مقدمتهم أبناء عدوه من الملكة الراحلة.

كان التوأمان – هليوس وسيليني – في العاشرة من العمر. وكان فيلادلف أصغر منهما سنًا.

عهد أوكتافيو إلى أخته أوكتافيا زوجة أنطونيو المطلقة المهانة، في تربية أبناء زوجها من عشيقته تربية رومانية خالصة، بحيث تستطيع روما في مستقبل الأيام أن تستخدمهم لقضاء مآربها وتحقيق أغراضها.

ولكن ألكسندر هليوس وفيلادلف ماتا قبل أن يبلغا الرشد. وبقيت كليوباترا سيليني على قيد الحياة.

وعندما وضعت روما تاج الإمبراطورية على رأس أوكتافيو ونادت به إمبراطوراً على الغرب والشرق باسم «أوغسطس»، جعل الرجل يفكر في إنشاء دولة جديدة تخضع لتاج قيصر ويجلس على عرشها ملك وملكة ممن غذتهم روما بلبنها وعجنتهم بيدها.

وكان يقيم في روما في ذلك الوقت الأمير جوبا الإفريقي بن جوبا الأول ملك

نوميديا. وكان «يوليوس قيصر» قد هزم أباه واجتاح وطنه وضمه إلى ممتلكات روما الشاسعة.

نشأ الأمير جوبا في روما نشأة لاتينية أنسته أصله ومصائب أبيه، فأصبح أطوع لقيصر من بنانه، وعندما بلغ أشده أقامه أوغسطس ملكاً على «موريتانيا» الإفريقية باسم «جوبا الثاني».

وأطلق الملك الجديد على عاصمة ملكه اسم «سيزاريا» أو «قيصرية» اعترافاً منه بفضل ولي نعمته «أوغسطس قيصر».

وفكر الإمبراطور في إعطائه زوجة تكون مثله مشبعة بروح روما وثقافتها، فوقع اختياره على «كليوباترا سيليني» ابنة الملكة المصرية العظيمة، والحلقة الوحيدة الباقية من سلالة مارك أنطونيو.

فأصبحت ابنة كليوباترا ملكة مثل أمها.

وقال قيصر لربيبته وهو يودعها يوم رحيلها عن روما إلى عاصمة ملكها:

- لقد كان اسم «هليوس - الشمس» شؤماً على أخيك إسكندر فلعل اسم «سيليني - القمر» يجلب لك يا ابنتي الخير والسعادة والهناء!

***

انصرف جوبا إلى إدارة شؤون مملكته بلباقة ومقدرة. فازدهرت موريتانيا في عهده وعاش شعبه في رخاء واطمئنان، وتمكن ذلك الملك النابغة من التوفيق بين إرضاء بلاده وإرضاء روما في آن واحد.

أما كليوباترا سيليني فإنها لم تكن على وفاق مع ذلك الزوج الذي كان يهمل الملكة ولا يعطيها من وقته أكثر مما تسمح له بذلك شؤون المملكة، ولم تكن تلك الشؤون لتسمح له بالاهتمام بزوجته والقيام تجاهها بواجبه كله.

وكانت كليوباترا سيليني تعد نفسها أشرف محتداً من ذلك وأنقى دماً منه، أليست أمها كليوباترا؟ أليس والدها مارك أنطونيو؟ أليست الدماء التي تجري في عروقها

مزيجاً من الدم الروماني النبيل والدم اليوناني النبيل أيضاً؟ فمن يكون جوبا الإفريقي الموريتاني بالنسبة إليها؟

وامرأة هذه عقليتها وهذا اعتقادها في نفسها لا يمكن أن تجعل زوجها سعيداً في حياته وتضمن له الهناء، وإذا أضفنا إلى ذلك أن الزوج نفسه كان في شغل شاغل عن زوجته، منصرفاً إلى معالجة شؤون مملكته ورعاية الأب والعالم وتشييد الهياكل، والقصور وتأسيس المعاهد وخدمة الفنون، أدركنا أن كلا الزوجين الملكيين كان يعيش غريباً عن الآخر، معتمداً على نفسه فقط، غير باحث عند رفيق حياته على معونة أو عطف أو حب!

وكانت الملكة كليوباترا سيليني تتمتع بحقوق خاصة بها، أقرتها روما وأرغمت الملك جوبا الثاني على إقرارها أيضاً، بحجة أن كليوباترا رومانية أصيلة في حين أن زوجها غريب عن روما تبناه الإمبراطور فاكتسب القومية الرومانية اكتساباً، وتلك الحقوق التي كانت كليوباترا تتمتع بها كانت تجعلها قادرة على طبع صورتها على النقود الموريتانية وعلى جدران الهياكل والقصور، وإصدار أمرها إلى رجال الحرس والجيش، ومناهضة سلطة الملك إذا خطر ببالها أن تفعل.

وكثيراً ما كان يخطر ذلك ببال كليوباترا سيليني!

***

– تعالي يا لونا تعالي فإنني أشعر الليلة بضيق في صدري ويخيل إلى أنني مسرعة بخطى واسعة نحو القبر!

ألقت «لونا» بنفسها على قدمي سيدتها وقالت بصوت حنون ينم على حب وإخلاص:

– بددي أفكارك السوداء يا مولاتي فسوف تعيشين طويلاً. إنك جميلة قوية والمستقبل يضحك لك ويناديك!

– كلا يا لونا!.. لقد شاءت الآلهة أن تغرب «شمس» أخي هليوس قبل الأوان، وسوف يغيب «قمر» سيليني قبل الأوان أيضاً!

قالت الملكة الشابة هذا وبكت.

وتساقطت دموعها على يدي وصيفتها «لونا» فبكت الجارية لبكاء سيدتها.

وامتزجت دموع «القمرين سيليني ولونا في سكون ذلك الليل، في قصر جوبا الثاني المشرف على البحر بمدينة قيصرية.

- لونا، لقد أطلقوا عليك هذا الاسم لأنك ولدت في الليلة التي ولدت فيها أنا! سموني بلغة زمي اليونانية «سيليني» - وسموك بلغة عشيق أمي أنطونيو الروماني «لونا» والأسماء لمسمى واحد، هو القمر الذي يضيء الليالي السوداء، ولكن القمر اليوناني سوف يغيب قبل أن يصير بدراً، فلن يتحقق دعاء أوغسطس قيصر! وأرجو يا أختي أن يبقى القمر الروماني متلألئاً في الفضاء وأن تعيشي طويلاً يا لونا!

فقبلت لونا قدمي مولاتها وقالت والزفرات تخنقها:

- لن أنسى يا سيدتي أن أبي المصري هو ذلك الرجل الذي خضع لإرادة أمك الملكة العظيمة، وحمل إليها في قصرها بالإسكندرية، الحية المسمومة في سلة التين، لقد مات أبي أيتها الملكة بعد أن أفضى إلى برغبته الأخيرة: وهي أن ألحق بك حيث تذهبين، وأن أكون لك خادمة مطيعة كما كان بائع التين خادماً مطيعاً لأمك، وأن أرحل عن هذا العالم في اليوم الذي ترحل فيه عنه كليوباترا سيليني ويغيب قمرها عن الأنظار!

- إذن سوف نلحق بأمي وأخويَّ في العالم الآخر متعانقتين، فليلتقي القمران هناك بكليوباترا ربة السحر والجمال وابنها هليوس الشمس المشرقة!

***

وفي اليوم التالي، ارتفعت في قصر الملك أصوات النساء ومزق عويلهن الفضاء وحمل الرسل إلى الملك جوبا الثاني خبر وفاة زوجته كليوباترا سيليني.

ترك الملك مجلسه وأسرع إلى حجرة الملكة؛ فإذا به أمام جثة هامدة.

بل أمام جثتين هامدتين!

جثة زوجته وقد خرجت روحها من بين شفتيها، تاركة عليها ابتسامة حلوة.

وجثة الوصيفة لونا وقد بات وجهها حالك السواء من أثر السم الزعاف الذي تجرعته.

وقف جوبا الثاني أمام الجثتين مطرق الرأس صامتاً، ثم التفت إلى نساء القصر ورجال الحاشية وقال:

- لتدفن الملكة في حديقة القصر، وليعلن الحداد عليها أربعين يوماً..

ثم تقدم من جثة زوجته وتناول يدها بيده وقال:

- لم نذق لذة الحياة معاً أيتها الحبيبة ولم ننعم بالسعادة والهناء في هذا العالم. فلتسهر عليك الآلهة في الآخرة! وأعدك الآن بأنني سأتعهد بعنايتي ولدنا «بطليموس» وابنتنا «دروزيلا» راجياً أن يكونا في هذه الحياة أوفر منا حظًّا وسعادة وهناء!

وهم الملك بالخروج من قاعة الموت فارتفع صوت سائلاً:

- ولونا؟ لونا الوصيفة الأمينة، أين ندفنها؟

فأجاب الملك:

- لتدفن بجوار سيدتها. فقد كان القمر للقمر وفيّاً!

***

وفي حديقة القصر رقد القمران:

كليوباترا سيليني، ابنة كليوباترا ملكة مصر من عشيقها الروماني مارك أنطونيو. وزوجة الملك جوبا الثاني، والوصيفة «لونا» ابنة البائع المصري الذي حمل إلى كليوباترا العظيمة الحية المسمومة في سلة التين.

الحب العجيب

- أتحبينني يا فينا ؟

- أعبدك يا لوكوس!

- أتقسمين لي يمين الإخلاص في الحب؟

- إلى النهاية!

- إذاً سأرحل هادئاً مرتاح البال إلى الحروب والغزوات، واثقاً بك عالماً أنك ستفكرين في وترفعين صلواتك إلى الآلهة لكي تأخذ بيدي وتدفع عني الموت في الميادين!

قال لوكوس هذا وطبع على جبين حبيبته «فينا» قبلة حارة وانصرف من مخدعها عائداً إلى ثكنات الجيش.

وبعد نصف ساعة، كان في المخدع شاب آخر، بهي الطلعة طويل القامة قوي العضلات مثل لوكوس.

ودار بينه وبين الفتاة فينا الحديث الآتي:

- أتحبينني يا فينا؟

- أعبدك يا لاجوس!

- أتقسمين لي يمين الإخلاص في الحب؟

- إلى النهاية!

- إذاً سأرحل هادئاً مرتاح البال إلى الحروب والغزوات، واثقاً بك، عالماً أنك ستفكرين فيَّ وترفعين صلواتك إلى الآلهة لكي تأخذ بيدي وتدفع عني الموت في الميادين!

قال لاجوس هذا، وطبع على جبين حبيبته «فينا» قبلة حارة مثل قبلة لوكوس -

وانصرف من مخدعها عائداً إلى ثكنات الجيش!

***

امرأة تحب رجلين!

ليس هذا ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب، فإن التاريخ يذكر في سجلاته أكثر من حادث واحد من هذا النوع، إنما العجب كل العجب في أن تحب المرأة رجلين حبًّا قويًّا عميقاً، يدفعها إلى التضحية في سبيل الاثنين، والعجب كل العجب في أن يكون كل من الرجلين المحبوبين عالماً بمكانه خصمه لدى المرأة، وأن يكون راضياً بذلك، متفقاً مع غريمه على أن يتنحى أحد الاثنين طائعاً مستسلماً عندما تجاهر الفتاة في حضورهما بأنها تفضل هذا على ذاك، أو ذاك على هذا! ..

- أتحبينني يا فينا!

تلك كانت حالة العاشقين المعشوقين، لوكوس الروماني ولاجوس اليوناني، مع الفتاة فينا، في قصر ملكة مصر كليوبترا!

من هي «فينا» مثيرة ذلك الحب المزدوج، وصاحبة القلب المشطور إلى شطرين؟

هي فتاة مجهولة الأصل، لم يعرف أحد من أمرها شيئاً، لأن الرجل الذي كان مطلعاً على سر حياتها مات في القصر فجأة، وقيل على إثر موته إن يداً أثيمة دست له السم في الطعام، وإن تلك اليد هي الفتاة «فينا» نفسها، لأنها كانت تريد التخلص من سيطرته عليها.

أما الرجل فاسمه «عمرو» وهو عربي جاء مصر بعد دخول يوليوس قيصر إلى الإسكندرية وجلوس كليوبترا على عرش البطالسة، وكانت الفتاة «فينا» تصحبه وهي في العاشرة من عمرها.

رأتها كليوبترا فأحبتها واتخذتها وصيفة ونجية .. وكانت الوصائف الأخرى في القصر يتهامسن فيما بينهن قائلات:

- هذه الفتاة هي أخت الملكة، فإن بطليموس كان يحب امرأة عربية، وقد

استولدها هذه الفتاة ثم قتلها وأرسل الطفلة مع أحد المقربين إليه وأعطاه مبلغاً من المال، قائلاً له أن يرحل عن مصر ولا يعود إليها إلا بعد موت الملك.

فعاد عمرو مع الفتاة ابنة بطليموس بعد أن آل العرش إلى كليوبترا!

هذا ما كانت الوصائف يتهامسن به في القصر، وقد بلغت هذه الإشاعات مسامع الملكة فثار ثائرها، وغضبت على وصائفها، وساءها أن تتناقل الألسنة خبراً مثل هذا وأرادت أن تكذبه علناً، فأغدقت نعمها على الفتاة اليتيمة، وقدمتها لمارك أنطونيو عشيقها الروماني المتيم، قائلة له إنها ابنة قائد من قواد الجيش في عهد أبيها، وأنها تحبها حبًّا جمًّا وتعاملها في القصر معاملة الأخت لأختها.

وكانت الفتاة «فينا» غريبة الأطوار، غريبة الأخلاق، غريبة الأعمال، يخيل إلى من يعاشرها ويجالسها أنها مزيج من المتناقضات، أو أنها مكونة من شخصين شاءت الطبيعة أن تجعل منهما بمثابة شخص واحد.

كان في استطاعة فينا أن تضحك وتبكي في آن واحد، وأن تبدو في لحظة واحدة هادئة هائجة، راضية ناقمة، نائمة مستيقظة!

وتلك الظواهر الغريبة الشاذة كانت تحمل رجال الحاشية الملكية ونساء القصر على الاعتقاد بأن الفتاة المقربة من الملكة ليست امرأة كبقية النساء، وأن للآلهة المسيطرة على مقدرات البشر يداً في تكوينها!

وكان أغرب تلك الظواهر الداعية إلى الدهشة والتساؤل، ميل الفتاة «فينا» إلى رجلين وشطر قلبها شطرين، فإنها كانت تحب «لوكوس» الضابط الروماني في حرس كليوبترا، وكانت تحب «لاجوس» الضابط اليوناني في فرقة «فرسان الموت»، وكانت تجاهر أمام الاثنين بأنها تحب كلًّا منهما حبًّا خالصاً أكيداً، وأنها لاتفرق ولا تستطيع أن تفرق بين الواحد والآخر!

وكانت الملكة كليوبترا، وهي العاشقة المجرِّبة، والمطلعة العليمة بأسرار الحب، تعلم ذلك وتشجع الفتاة على المضي في الحبين معاً، إلى أن يجيء اليوم الذي تشعر فيه بأن في استطاعتها أن تستغني عن أحد الحبيبين دون أن يصاب قلبها بجروح تدميه.

وشاهد سكان القصر الملكي، في وقت من الأوقات، أعجب حب دونه التاريخ في صفحاته، حب الفتاة «فينا» المجهولة الأصل، وظورها أمام الناس متأبطة ذراعي رجلين، هما في الواقع صديقان وخصمان في آن واحد!

***

تمردت فرقة من الجيش الروماني الذي تبع مارك أنطونيو إلى مصر وأقام فيها مع القائد العاشق، فزحف حرس الملكة على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لوكوس إلى الميدان.

وتمردت القبائل على الحدود، فزحفت فرقة «فرسان الموت» على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لاجوس إلى الميدان.

وعكفت الفتاة «فينا» على الصلاة وحبست نفسها في حجرتها وجعلت تضرع إلى الآلهة ليلاً ونهاراً بأن تحرس الحبيبين في ساحات الوغى، وترد عنهما الأسنة والسيوف.

مضى أسبوعان ثم مضى أسبوع ثالث، وإذا بالرسل تعود إلى القصر حاملة أخباراً سارة عن فوز الحرس في خنق عصيان الرومانيين وإعادتهم إلى حظيرة الطاعة.

لكن تلك الأخبار كانت ممزوجة بالأسى: فإن فرقة الحرس فقدت فريقاً من رجالها الأشداء، وكان الضابط لوكوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف.

علمت «فينا» بما حل بحبيبها، فلم تطق صبراً على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي الصغير، وهو هدية من الملكة كليوبترا، وأغمدت نصله في صدرها. فسقطت على الأرض والدم يسيل من جرحها...

بل من قلبها ...

فإن الفتاة العاشقة طعنت نفسها بذلك الخنجر الذهبي ناحية اليسار من صدرها المرمري، فمزق النصل الحاد قلب «فينا» تمزيقاً، وتدفقت الدماء منه على بلاط الحجرة أمام تماثيل الآلهة التي لم تستجب صلوات العاشقة المسكينة.

ولكن حدث بعد ذلك ما جعل القصر كله يموج كالبحر الزاخر، وتتصاعد فيه الأصوات من كل ناحية وصوب: أصوات الدهشة وأصوات الاستغاثة وأصوات الخوف والذعر!

مزق النصل قلب الفتاة ولكن الفتاة لم تمت! ووقف قلبها عن الخفقان ولكن الحياة لم تفارق ذلك الجسد البديع.

أما كان الناس يعتقدون أن للآلهة يداً في تكوين الفتاة الحسناء المجهولة الأصل؟

***

ومضت أسابيع أخرى، وتماثلت فينا للشفاء دون أن يعود قلبها إلى الخفقان.

وحمل الرسل أخباراً سارة عن فوز «فرسان الموت» في تأديب القبائل العاصية وإعادتها إلى حظيرة الطاعة.

وكانت هذه الأخبار كالأخبار السابقة ممزوجة بالأسى: فإن فرقة الفرسان فقدت فريقاً من رجالها الأشداء، وكان الضابط لاجوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف.

علمت فينا بما حل بحبيبها الثاني، فلم تطق صبراً على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي المعهود، وأغمدت نصله في صدرها - ناحية اليمين - وخرت على سريرها غارقة في بحر من الدماء!

***

كانت الطعنة الثانية هي القاضية، فقد عجز أطباء القصر عن إعادة الحياة إلى جسم الفتاة العاشقة، فبكتها الملكة كليوبترا، وأمرت بأن تدفن في حدائق القصر تحت شرفة مولاتها، وأن تزرع الأزهار على ضريحها.

ولكن الملكة أرادت أن تحتفظ بأثر من آثار الفتاة التي قتلت نفسها مرتين في سبيل حبها المزدوج، فطلبت من الأطباء أن ينتزعوا قلب «فينا» من صدرها، وأن يضعوه في إناء زجاجي ويرسلوه إلى كليوبترا للاحتفاظ به في حجرتها - حجرة الغرام التي

كانت تذوق فيها مع عشيقها مارك أنطونيو ألذ ساعات مرت بها في حياتها.

ووقفت الملكة إلى طلبها، ومزق بعض الأطباء صدر الفتاة.

ووقف الأطباء مذهولين دهشين مذعورين أمام المنظر الذي وقعت عليه عيونهم ولمسته أيديهم. فقد وجدوا في صدر الفتاة قلبين!

وجدوا قلباً إلى اليسار!

ووجدوا قلباً آخر إلى اليمين!

كانت الفتاة فينا إذاً ذات قلبين، وكانت ذات حبين، وكانت ذات شخصيتين متباينتين أفرغتا في جسم واحد!

إذاً فهي امرأتان في امرأة وعاشقتان في عاشقة!

وكان غرامها أعجب غرام عرفه التاريخ، فقد خفق قلبها الأيسر بحب الضابط لوكوس الروماني، وخفق قلبها الأيمن بحب لاجوس الضابط اليوناني، وقتلت نفسها مرتين بأن مزقت قلبها الذي أحب لوكوس بعد موته، ومزقت قلبها الذي أحب لاجوس بعد موته أيضاً!

وعندما انهزمت جيوش الملكة وحليفها مارك أنطونيو، وانتحر القائد الروماني العاشق، ودخل عدوه أوكتافيوس الإسكندرية فائزاً منصوراً، وماتت كليوبترا تلك الميتة المعروفة، وجد الروماني المنتصر أوكتافيوس، في حجرة الملكة، ذلك الإناء الزجاجي، فحمله معه إلى روما بعد أن سمع من الرواة قصة الفتاة فينا ذات القلبين، وذات الحبين!

وكان ذلك في سنة ٣٠ قبل الميلاد.

جواهر بطليموس

كتب بطليموس الثالث، ملك مصر الإغريقي، إلى صديقه كليومينس ملك إسبارطة يقول:

«ردًا على خطابك الذي تطلب إلي فيه أن أنجدك بالمال والرجال، أخبرك بأنني أجيبك إلى رغبتك وألبي نداءك، ولكنني أشترط عليك أن ترسل إلي من ناحيتك رهائن أحتفظ بها مادام جنودي بعيدين عن وطنهم، ولا أخالك معارضاً في أن تكون الرهائن أمك وزوجتك وأولادك، فابعث بهم إليَّ، وفي اليوم الذي يصلون فيه إلى الإسكندرية يبحر جنودي إلى بلاد الإغريق للانضمام إلى جيشك ومحاربة أعدائك. وثق أنني دائماً صديقك المخلص الأمين».

***

واضطر كليومينس إلى النزول على رغبته وقبول شروطه، لأن الضرورة كانت ترغمه على ذلك.

وبعد أسابيع، وصلت الرهائن إلى الإسكندرية، وغادرها جيش بطليموس في اليوم التالي إلى بلاد الإغريق.

***

وكان الإسبارطيون يعانون مشقات هائلة في الدفاع عن وطنهم، بالرغم من أنهم كانوا رجال حرب وكفاح.

وحاول كليومينس، عندما وصلت إليه النجدة المرسلة من مصر، أن يستعيد المدن التي فقدها، فَكَرَّ على أعدائه مرة بعد مرة، ولكن المقدونيين تغلبوا عليه وهزموه في معركة سبلازيا سنة ٢٢٢ق.م فاضطر إلى أن يخرج من موطنه هائماً على وجهه

ويطلب النجاة في ديار غير دياره.

أبحر إلى الإسكندرية، عاصمة البطالسة في ذلك الوقت، ونزل مع حاشيته ضيفاً على صديقه وحليفه بطليموس الثالث.

ورحب به ملك مصر، وأعاد إليه أمه وزوجته وأولاده وأنزلهم في قصر شاهق على شاطئ البحر، وعلى مقربة من القصر الملكي.

وكان بطليموس الثالث ملكاً عادلاً محبوباً من شعبه، الذي أطلق عليه اسم «المحسن» لأنه كان يعطف على الفقراء والمعوزين، ويساعد اليتامى والمساكين، ويرغب في أن يعيش الناس جميعاً في بحبوحة من الهناء والسعادة.

وبطليموس الثالث هذا هو الذي فتح سوريا وآسيا الغربية وأعاد من بلاد فارس إلى مصر تماثيل الآلهة وأسلاب المعارك التي كان دارا وقمبيز قد أخذاها من وادي النيل عندما اجتاحته جيوشهما.

ولكن الأقدار أبت إلا أن تظل عابسة في وجه كليومينس الطريد. فإن صديقه بطليموس الثالث مات بعد وصول الملك الإسبارطي إلى مصر بشهور معدودة، وفي سنة ٢٢٢ق.م . وارتقى العرش بعده ابنه بطليموس الرابع وكان يكره كليومينس ويوجس خيفة منه.

وعرف بطليموس الرابع في التاريخ باسم «فيلوباتور» أي «المحب لأبيه». وقد أطلق عليه الناس هذا الاسم لا لأنه كان يحب أباه، بل لأنه كان بعكس ذلك يضمر له الشر ويرقب موته، وقد قيل إنه دس له السم في الطعام لكي يخلفه على العرش.

وكان أول عمل أقدم عليه الملك الجديد على إثر تبوئه عرش مصر، أن أمر باعتقال كليومينس وأسرته وحاشيته وزجهم جميعاً في السجن، بحجة أن ملك إسبارطة السابق يعلل النفس بانتزاع السلطة من البطالسة وبسط سلطانه على مصر.

***

وكان بين رجال كليومينس الذين فروا معه من إسبارطة إلى مصر رجل شجاع يقال له «بانتيوس»، وهو من المقربين إلى الملك المهزوم ومن أنصاره المخلصين، بل أشد أنصاره إخلاصاً له ورغبة في استرجاع عرش إسبارطة وطرد المقدونيين من بلاده.

وفي الفترة التي انقضت بين وصول الملك وحاشيته إلى مصر، والقبض عليهم وزجهم في السجن، عرف بانتيوس الإسبارطي فتاة من وصائف القصر تدعى ديمتريا. وهي إغريقية أرسلتها برنيس أخت بطليموس الثالث إلى أخيها وأوصته بها خيراً لأنها يتيمة الأبوين ولأن أمها كانت خادمة مخلصة لبرنيس زوجة أنطيوخوس الثالث ملك سوريا.

أحب بانتيوس الفتاة وبادلته الحب. وأقسم كل منهما يمين الإخلاص للآخر، وتعاهدا على الزواج عندما تعود المياه إلى مجاريها ويرجع الملك كليومينس إلى إسبارطة.

ولكن أماني الحبيبين وآمالهما أصيبت بضربة قاسية عند ما انتقل بطليموس الثالث إلى العالم الآخر وخلفه ابنه بطليموس الرابع على العرش، فقلب ظهر المجن للإسبارطيين وألقاهم في أعماق السجون.

وباتت الفتاة ديمتريا ترقب الفرص للاتصال بحبيبها وقد ألحقه الملك برفاقه، ولكنها لم تجد إلى ذلك سبيلا، فاستولى عليها الحزن وجعلت تندب سوء حظها وتطلب من الآلهة أن تنقذ الملك السجين وعشيقها من قبضة ذلك الظالم الذي غدر بهما.

غير أن بعض أعوان الملك من إغريق الإسكندرية كانوا يعملون خفية لإخراجه من السجن، وشاءت الظروف أن تتصل ديمتريا بأحدهم فالتحقت بالمتآمرين وساعدتهم على قدر طاقتها، ونجحت المؤامرة فخرج كليومينس ذات يوم من

السجن فجأة بعد أن أغرى الحراس واشتراهم بالمال، وتبعه رجاله وقد امتشق كل منهم حسامه واندفع الجميع في شوارع الإسكندرية داعين الناس إلى العصيان والثورة.

وأمام باب السجن وجد بانتيوس حبيبته الوفية في انتظاره، فتعانق العاشقان وهمست ديمتريا في أذن الإسبارطي هذه الكلمات:

- بانتيوس، لقد ضمنت لكم الفوز بالمال بعد أن تستولوا أنتم اليوم على معاقل الجنود، فقد أخذت من قصر الملك من الجواهر والحلي ما يكفي لشراء شعب بأسره، وإقامة دولة جديدة على أنقاض دولة بائدة.

فطبع بانتيوس على جبين حبيبته قبلة حارة، وانطلق وانطلقت هي معه وراء الملك كليومينس في طلب الثأر والمجد!

***

ولكن الآلهة كانت تحارب الملك الطريد في أمانيه، وتعاكسه في جميع أعماله، فقد أبى سكان الإسكندرية، وهم التجار الحريصون على أموالهم ومصالحهم، أن ينضموا إلى ذلك الغريب الثائر، فتغلب رجال بطليموس على الإسبارطيين وقبضوا عليهم جميعاً بعد أن سقط منهم من سقط في القتال وأعيدوا الواحد بعد الآخر إلى السجن.

وأدركوا أنهم هالكون لا محالة.

وكانت الفتاة ديمتريا بين الأسرى لأنها أبت إلا أن تظل مرافقة لحبيبها، فحاربت معه جنباً إلى جنب وآثرت دخول السجن مع من تحب على التمتع بالحرية بعيدة عنه.

وعندما أغلقت وراء الأسرى أبواب السجن وقف الملك كليومينس في قومه خطيباً وقال:

- أيها الرفاق، لقد شاءت الآلهة أن تلازمنا الهزيمة إلى النهاية، وأن يقضى على أعز أمانينا فلا أرى الآن فائدة من البقاء على قيد الحياة، بل أرى أن الموت

خير لنا وأوفى، فإن الملك بطليموس الرابع سوف ينكل بنا وينتقم منا ويلقي بنا إلى السباع تفترسنا، أو إلى الفيلة تدوسنا بقوائمها، أو يأمر زبانيته بذبحنا ذبح الأنعام في هذا السجن المظلم، إن لم يكن قد فكر من الآن في شد وثاقنا وإلقائنا في البحر من أعلى أبراج قصره، ولذا فأنا أدعوكم جميعاً أيها الرفاق إلى أن تقطعوا حبل حياتكم بأيديكم وأبدأ بنفسي فأغمد هذا الخنجر في صدري.

فنهض بانتيوس وقال:

- أيها الملك المحبوب، لا أظن أحداً من رفاقنا يتردد لحظة واحدة في النزول على إرادتك والعمل بإشارتك، فكلنا نرحب بفكرتك، وخير لنا ألف مرة أن نموت منتحرين من أن يُمثِّل بنا جنود بطليموس فنموت كاللصوص أو الجبناء، غير أن لي أمنية واحدة أرجو منك أن تصغي إليها.

- إن أمنيتك يابانتيوس لمقضية قبل أن تفضي بها إليَّ. فأنت أوفى الأوفياء وأخلص المخلصين. تكلم!

فطلب بانتيوس من كليومينس أن لا يسمح للفتاة ديمتريا بأن تقدم على الانتحار لأنها ليست إسبارطية، ولأن الأقدار دفعت بها إلى الاشتراك في تلك الحركة الثورية دون أن يحتم عليها الواجب الاشتراك فيها.

ولكن الفتاة نهضت من مكانها وصاحت:

- بانتيوس! ما كنت أظنك أيها الحبيب تقدم على أمر من شأنه أن يلحق العار بمن تحب، لقد حاربت معكم وربطت حظي بحظكم وحياتي بحياتكم، فسأموت إذاً عندما تموتون أو أبقى على قيد الحياة إذا بقيتم أحياء، غير أنني أرغب في أن أفضي إلى الملك كليومينس بسر لم أبح به إلا لك وحدك أيها الحبيب، فاعلم أيها الملك الكريم أنني حملت معي عندما غادرت قصر الملك للالتحاق بكم، صندوقاً صغيراً يحوي ثروة كبيرة، ذلك الصندوق هو

الذي كان الملك بطليموس الرابع يحفظ فيه جواهر التاج والحجارة الكريمة واللآلئ النادرة التي يعتز بها البطالسة، وبين تلك الجواهر جوهرة جاء بها بطليموس الثالث «المحسن» من الشرق، وكان دارا ملك الفرس يحلي بها تاجه، وقد ألقيت ذلك الصندوق في مكان من البحر لايعرفه سواي، على أمل أن يكلل النجاح ثورتكم فننتشل الصندوق من جوف اليم ونغترف من الجواهر ما يلزمنا لإقامة عرش جديد على أنقاض عرش البطالسة، وإعادة عرش إسبارطة إليك أيها الملك، أما الآن وقد قضي على آمالنا وقررت أنت وقررنا نحن أن نموت جميعاً، فإن الكنز سيظل في مكانه ولن يعلم أحد أين دفنت جواهر بطليموس الرابع ملك مصر.

***

نفذ القوم عزمهم فانتحروا جميعاً

وكان كل واحد منهم يغمد خنجره في صدره دون أن تنبعث من ذلك صرخة ألم أو حسرة أو حشرجة.

وكان البادئ بالانتحار الملك كليومينس نفسه وتبعه الآخرون.

وبقى بانتيوس واقفاً في مكانه ينظر إلى رفاقه يتساقطون حوله كسنابل القمح.

وكانت ديمتريا واقفة بجانبه ترمقه بنظراتها وخفقان قلبها يشتد لحظة بعد لحظة

وعندما سقط الجميع على الأرض تناول بانتيوس خنجره من غمده ورفع يديه إلى السماء وقال:

- أيتها الآلهة، يا آلهة إسبارطة، اشهدي أنني لم أتردد قط في اللحاق برفاقي، ولكنني أردت أن أثق من موتهم جميعاً مخافة أن يبقى في أحد منهم رمق من الحياة فيعالجه أطباء بطليموس فيشفى من جرحه وبعد أن يعذبوه يموت بأيديهم!

وطاف بانتيوس على جثث رفاقه وجعل يطعن كلًّا منهم طعنة في قلبه ووصل إلى الملك فإذا به يتحرك فأكب بانتيوس على يده يقبلها وأغمد خنجره في الصدر الملكي.

وبعد أن أيقن الرجل أن الحياة قد فارقت جميع الجثث المبعثرة حوله، قدم خنجره إلى حبيبته ديمتريا وأغمض عينيه ولم يفه بكلمة.

فأدركت الفتاة قصده. وبأسرع من لمح البصر أخذت الخنجر من يده وأغمدته بين ثدييها.

فانتزع بانتيوس ذلك الخنجر المخضب بدم حبيبته الوفية، وطعن نفسه الطعنة القاضية وسقط على الفتاة التي أحبها جثة هامدة.

وكان ذلك في سنة ٢٢٠ ق.م.

***

بحث البطالسة كثيراً عن جواهر بطليموس الرابع ولكنهم لم يقفوا لها على أثر وبقي أمرها سرًّا من أسرار التاريخ يقترن في الإسكندرية بسر قبر الإسكندر.

قلب بين حبين

دخلت «يمامة» الفتاة العربية الجميلة على مولاتها «الزباء» ملكة تدمر فوجدتها مضطربة قلقة تروح وتجيء في قاعات قصرها كالتي سُدت في وجهها منافذ النجاة.

- يمامة! إنني في أشد الحاجة إليك اليوم وسأختبر إخلاصك ووفاءك للمرة الأخيرة في هذه الساعات العصيبة والظروف القاسية.

- لقد برهنت لك يا مولاتي على أن هذا القلب يتقاسمه حبان: حب الوطن وقد تمثل وتجسم في شخصك المفدى، وحب من نوع آخر تمثل وتجسم في شخص «الربيع بن جابر» الفارس العربي الذي كان سيفه البتار - ولا يزال - دعامة قوية من دعائم هذا العرش.

- إن هذا العرش مهدد بالانهيار يا يمامة والرومان على الأبواب، ولابد لي من قواد لا يعرفون في المقاومة هوادة، ولا يتركون لليأس منفذاً إلى قلوبهم، لكي أنقذ ملكي من الضياع وأنقذ شعبي من الأسر والعبودية.

- وماذا تطلبين مني يا مولاتي؟

- أن تسرعي إلى الربيع بن جابر، إلى حبيبك يا يمامة، وتحبسي نفسك معه في «قلعة العقاب» التي يقود حاميتها: يجب على الربيع أن يمنع الرومانيين من المرور ومهاجمة المدينة واقتحامها من هذه الناحية، ووجودك إلى جانبه داخل الأسوار يبعث في نفسه قوة لن يجدها وهو بعيد عنك منعزل عن الناس.

- سأفعل ما تأمرينني به يا مولاتي.

- فإما أن يصد الربيع جيش الرومانيين الزاحف علينا من هذه الجهة. وإما أن يظل معتصماً في قلعته حتى ولو أحاط بها الرومان من كل صوب إلى أن يجيئنا الفرج من السماء!

- الوداع يا مولاتي. ثقي أن الرومانيين لن يدخلوا «قلعة العقاب» وفيها عربي واحد على قيد الحياة!

***

كانت مدينة تدمر درة الصحراء وعاصمة الشرق. وكانت ملكتها «الزباء» سيدة النساء ونابغة عصرها، وبعد أن كانت المدينة خاضعة لسلطان روما العظيمة، خلعت عنها شيئاً فشيئاً غبار الاستكانة والخنوع، وحطمت قيود الذل والاستسلام، وأصبحت بفضل الزباء مملكة مستقلة تحاكي بعظمتها ورقيها ومجدها سيدتها السابقة روما.

وأبى الإمبراطور «أوريليانوس» أن تظل تلك الدولة القوية قائمة وسط الصحراء تبسط سلطانها على المدن والقرى والجبال والرمال، وتتحدى روما العظيمة على أبواب الشرق.

فجرد الإمبراطور على الملكة جيشاً لجباً قاده بنفسه وسار لقتالها لدك عرشها والقضاء على سلطانها.

ومشت المرأة على رأس جيشها المدرب لملاقاة الرجل!

***

من هو أوريليانوس؟

ولد أوريليانوس من أبوين خاملين وكان شجاعاً لا يهاب الموت. فانضم إلى جيش روما جنديًا بسيطاً واشترك في الحروب التي خاض الرومانيون غمارها في الشرق والغرب، وما مرت سنوات معدودة حتى كان الجندي البسيط قد أصبح جنديًا عظيماً مسموع الكلمة محبوباً من رجاله.

وكانت روما تلقي قيادها في ذلك العصر المجيد إلى الرجال الذين يحسنون السير بها إلى المجد والعلا.

وكان أوريليانوس من أولئك الرجال النوابغ فأصبح إمبراطوراً بعد أن كان جنديًا بسيطاً.

***

ومن هي الزباء؟

هي ابنة الأمير عمرو العربي من أمراء العراق الأباة الأحرار، زوجها أبوها من أمير تدمر فوضعت المرأة نصب عينيها غاية عزمت على تحقيقها والتذرع بجميع الوسائل لتذليل الصعاب القائمة في وجهها.

وكانت غايتها إنشاء مملكة مستقلة في صحراء سورية وجعل مدينة تدمر عاصمة لتلك المملكة ودرة يتيمة بين مدن الشرق.

خضع زوجها لنفوذ روما وحمل لقب «قائد روماني» ودفع الجزية لجاليانوس وأوغسطس، فهال الزوجة أن يكون الأمير الشرقي ضعيف الإرادة محدود المطامع إلى هذا الحد، وجعلت تفكر في الاستئثار بالملك دونه ودون أسرته.

ومات الزوج ذات يوم.

وتهامس الناس في ذلك الوقت أن الزوجة قد ساعدت ملك الموت على ترحيل الزوج من هذا العالم إلى العالم الآخر.

وبقيت «الزباء» وحدها على عرش تدمر، وما لبثت أن نادت بنفسها ملكة على الشرق، وبسطت سلطانها على الأقطار المجاورة، وغزت جيوشها أرض مصر، ومخرت سفنها عباب البحرين الأبيض والأحمر.

فتطلعت روما ذاهلة خائفة إلى ذلك الكوكب الطالع في سماء الشرق، وقرر مجلس شيوخها أن السماء لا يمكن أن يتلألأ فيها كوكبان ساطعان.

ومشى أورليانوس بجيشه إلى تدمر.

ومشت الزباء بجيشها للقاء الغزاة.

***

جلست الزباء على عرش تدمر في سنة ٢٦٧ للميلاد.

واشتبكت جيوشها في القتال الحاسم مع الرومانيين في سنة ٢٧٢ أي بعد خمس سنوات كاملة من جلوسها على العرش.

دافعت المرأة عن ملكها دفاع الأبطال، وقاتلت الأعداء والسيف بيدها، وكانت تتقدم الصفوف على متن جوادها، تستنهض همم الرجال وتستحثهم على الاستبسال في الدفاع.

لكن إله الحرب خذلها في الميادين، فانهزمت جيوشها في كل مكان. واضطرت الملكة إلى العودة أدراجها إلى عاصمة ملكها، فاعتصمت فيها، وجمعت داخل أسوارها بقية جيشها الباقية للدفاع الأخير.

وأقام الرومانيون على تدمر الحصار من جميع الجهات، وجعلوا يهاجمون الحصون والقلاع والأسوار.

وشعرت الزباء أن الساعة قد دنت، وأن دعائم عرشها تتداعى، وأن البناء الشامخ الذي شيدته وسط الرمال يتمايل مهدداً بالسقوط والانهيار.

وجعلت تفكر في الانتحار.

***

تلك هي الظروف التي كانت الملكة سيئة الحظ تجتازها عندما دخلت عليها الفتاة العربية «يمامة» الجميلة، حبيبة القائد العربي التدمري «الربيع بن جابر» وتلقت منها رغبتها في أن يدافع الربيع عن «قلعة العقاب» إلى آخر نسمة من حياته وحياة رجاله.

وتلك هي الرغبة الأخيرة التي سمعتها الفتاة من ملكتها وردت عليها بهذه الكلمات:

– الوداع يا مولاتي. ثقي أن الرومانيين لن يدخلوا «قلعة العقاب» وفيها عربي واحد على قيد الحياة!

***

أسرعت الفتاة إلى حبيبها العربي فوجدته في قلعته يعد العدة للدفاع، وقد أوصدت أبواب القلعة وحشد فيها رجاله وعددهم مائة بطل صنديد وقرم عنيد.

– ما جاء بك إلى هنا أيتها الحبيبة؟ وما هذه الفكرة الطائشة؟ أتقيمين بين هؤلاء

الجنود وراء هذه الأسوار التي سيحاصرها الرومانيون اليوم أو غداً، والتي لن تصمد أمامهم أكثر من أسبوع أو أسبوعين؟

- نعم! سوف أقيم بينكم يا ربيع، لأن هذه الأسوار يجب أن تصمد ما دمتم وما دمت معكم على قيد الحياة! لن تفتح أبواب هذه القلعة للعدو ولن تسلم نفسك إليه ولن يلقي أي أحد منكم السلاح ما دامت في عروقنا دماء تجري. أتقسم لي يا ربيع أنك لن تخون الزباء ولن تساعد على سقوط تدمر في قبضة الرومانيين؟

- أقسم يا حبيبتي!

- لنستعد إذاً للدفاع وليكن ما هو كائن!

***

حاصر الرومانيون المدينة وهاجموها بخيلهم ورجلهم ومعداتهم. وسقطت القلاع في أيديهم الواحدة بعد الأخرى وظلت «قلعة العقاب» وحدها قائمة في طريقهم، تناطح السحاب بأبراجها، وتتحدى جموع الجنود بأسوارها المنيعة.

وطلعت الشمس ذات يوم على القلعة العاصية فإذا بحركة غير عادية تبدو بين الجنود المحاصرين فيها.

نادى الربيع بن جابر حبيبته وشريكته في الدفاع، يمامة العربية، وقال لها بلهجة تنم على قلق واضطراب شديدين:

- يمامة، لقد أصبحت الحالة لا تطاق: الزاد قد نفد من مخازن القلعة ولم يبق لدى الجنود ما يقتاتون به وما يدافعون به. فقد نفدت أيضاً النبال وأصبحت الأقواس لا فائدة ترجى منها، وأشعر بالعصيان يدب بين الرجال. فما رأيك؟

- لقد أعددت للأمر عدته يا ربيع، وحسبت لكل طارئ حسابه، أنت تعلم أن هذا القلب يخفق بحبين: حبك أنت وحب الملكة الزباء.. ولن يكون في وقت من الأوقات خائناً لأحدكما، دعني أعالج الحالة بنفسي.

- إنني لا أخفي عنك عزمي يا يامامة: لن أسلم نفسي للأعداء.. فإذا شاءت الأقدار أن يقتحم الرومانيون القلعة فإنني سأنتحر داخل هذه الأسوار. ولكن...

سكت الربيع وتضاعف اضطرابه، فأمسكت يمامة بيديه وسألته بلهفة:

- ولكن..؟

- اسمعي يا يمامة: لقد أوفد إلى الرومانيون مساء أمس رسولاً يحمل إليَّ شروطاً مشرفة، إنهم يعرضون على تسليم القلعة ويعاهدونني على أن يبقوا عليَّ وعلى رجالي، وأن يطلقوا سراحهم فيرحلوا إلى الصحراء.

- وأنت؟

- وأنا أيضاً، إنهم لن يأخذوني إلى إمبراطورهم أسيراً.

سكتت يمامة أيضاً، ثم قالت:

- دعني أفكر قليلاً في هذا. وغداً نبعث إلى العدو بالجواب.

***

غداً...

إن شمس ذلك الغد لم تشرق على رجال القلعة وهم أحياء، فقد عمدت يمامة العربية الأبية إلى تسميم المياه داخل الأسوار فشرب منها الرجال جميعهم وقضوا نحبهم في تلك الليلة الليلاء.

وفي صباح اليوم التالي كانت يمامة وحدها على قيد الحياة.

وأبت الفتاة أن تخون مليكتها...

وأبت أن تخون حبيبها...

فآثرت الموت على البقاء!

شاورت قلبها الموزع بين حبين: حب الشاب الجميل الذي اصطفته من بين

الرجال، وحب الملكة الشقية التي أغدقت عليها النعم.

إن الزباء لن تعيش بعد انهيار ملكها، فهل يحق ليمامة أن تتمتع بنور الشمس والملكة في عالم الأرواح؟

والربيع بن جابر؟ لو فتح للرومانيين أبواب القلعة لأبقوا على حياته ولكنها حياة ملطخة بالعار.. فهل تبقى يمامة بجانبه وهو القائد الخائن لمليكته، الموالي لأعداء تدمر؟

حار قلب الفتاة في بادئ الأمر بين حلين: حل فيه حياة ذليلة، وحل فيه موت شريف.

فآثرت الفتاة الموت على الحياة.

دست السم لحبيبها ولحامية القلعة، وبعد أن وثقت من موتهم جميعاً، عمدت إلى خنجرها فأغمدت نصله في صدرها وسقطت مضرجة بدمائها فوق جثة حبيبها الهامدة.

***

عشرة أيام مضت والرومانيون ينتظرون من قائد القلعة رده على شروطهم التي حملها إليه الرسول.

ولم تفتح أبواب القلعة في الأيام العشرة.. ولم يظهر أحد من فوق الأسوار والأبراج.

غير أن أسراباً من النسور كانت تحوم حول القلعة، وتصاعدت من وراء الجدران رائحة كريهة.. رائحة لا تنبعث إلا من الجيف والرمم.

حينذاك أدرك الرومانيون أن في الأمر سرًا، فهاجموا القلعة وحطموا أبوابها واقتحموا أسوارها.

فإذا بهم يستولون على مقبرة أموات لا على قلعة أحياء، وإذا بهم أمام أكداس

من الجثث وقد دب إليها الفناء وبينها جثة فتاة تعانق جثة شاب: يمامة العربية تعانق الربيع بن جابر العربي.

وأطلق الرومانيون على قلعة العقاب منذ ذلك اليوم «قلعة الأموات» وكان ذلك في سنة ٢٧٢ للميلاد.

***

أما الزباء فقد ساقها الرومانيون أسيرة إلى روما، وقيل إنها ماتت في الطريق. وقيل إنها عرضت على الشعب الروماني فماتت في روما حزينة كئيبة.

وأما أوريليانوس فقد سار بعد ذلك النصر المبين بثلاثة أعوام لمحاربة الفرس فقتله أحد عبيده في سنة ٢٧٥.

وكان ذلك العبد المعتوق أحد الجنود الذين حاصروا قلعة العقاب - أو قلعة الأموات في تدمر.

زبيدة

نام الأمويون عن حقوقهم فضاعت تلك الحقوق، وأغفلوا تدبير شؤونهم فدارت عليهم الدائرة، وتلك عاقبة النيام الغافلين!

***

قال الطبري في تاريخه إن نصر بن سيار، لما كثرت الخوارج وبلغه أن أبا العباس ابن محمد الإمام من آل أبي طالب - وهو الذي لقب فيما بعد بالسفاح - مختبئ بدار مسيلمة بالكوفة، كتب إلى أمير المؤمنين مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يخبره أن الناس مرادهم أن يبايعوا العباس. وقال شعراً.

أرى تحت الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تُذكَى	وإن الحرب أولها كلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهامُ
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام

***

كان الأمويون نياماً!

فقد بايع الناس أبا العباس بالكوفة، وسار بجمع غفير من الأنصار إلى دمشق. فالتقى الفريقان - فريق العباسين وفريق الأمويين - في معارك عديدة، وبطش أبو العباس وأشياعه بخصومهم، وتولى أبو مسلم الخراساني مهمة إبادة الأمويين فتتبعهم في كل مكان، وظن العباسيون بعد مذبحة أبي فطرس ومصرع مروان في مصر، أنهم أتوا على آخر الأمويين وأنه لم يبق منهم أحد على قيد الحياة، وكان ذلك في عامي ١٣١ و ١٣٢ للهجرة - أي ٧٤٩ و ٧٥٠ للميلاد.

ولكن الأقدار شاءت أن يفلت من يد السفاحين شاب حفظ له التاريخ أجمل ذكرى بما أسسه من دولة فتية في الأندلس، وما تركه من أثر نفيس في قرطبة.

ذلك الشاب هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، المعروف بعبد الرحمن الداخل.

لا أنوي في هذه الواقعة أن أنقل للقراء ما شرحه التاريخ وأثره عن حياة ذلك البطل العربي، الذي جدد شباب الدولة الإسلامية في الأندلس ورفع منار العلم والأدب في بلاد الغرب، ولكن أكشف لهم الستار عما أهمله التاريخ من أمر نجاته من الموت وكيفية فراره.

أفلت عبد الرحمن من المذبحة وكان في العشرين من عمره ومعه أخوه الصغير.

ولجأ عبد الرحمن وأخوه في بادئ الأمر إلى قرية حقيرة على ضفاف الفرات، وتخفيا هنالك مدة من الزمن في منزل رجل أمين من صنائع آبائهما وأجدادهما، ضافهما، ونصب نفسه حارساً على حياتهما.

وكان لصاحب المنزل فتاة تدعى زبيدة يانعة الشباب، ممتلئة الجسم، لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها، تقوم بالأعمال المنزلية في غياب أبيها، الذي كان يزاول صيد الأسماك في الفرات.

ووقعت عيناها على عبد الرحمن الغض الإهاب، الجميل الطلعة، فعلقته وأقامت من وراء خدرها ترقبه وترعاه في روحاته وغدواته.

خرجت الفتاة يوماً لتملأ ماء وإذا بأعلام سوداء بدت لها على ضفة النهر اليسري، فدرت أنها طلائع لشراذم من جنود العباسيين الذين كانوا يجوبون البلاد طلباً لبقايا بني أمية، فدلها قلبها على مصاب يتهدد من تهواه، فأسرعت إلى منزل أبيها وكان غائباً، وفكرت في أن تنبه عبد الرحمن وأخاه إلى الخطر الداهم.

لكنها فطنت إلى أن بتنبيهه إلى الخطر خطراً على حبها وحرماناً لها من استجلاء ذلك المحيا. فأنتجت لها فطنتها أن ترافق من تهواه في هربه وتقاسمه آلام النفي

ومشاق الأسفار.

ولكن بدا لها من جهة أخرى أنه يأبى عليها وهي فتاة أن ترافقه في فراره، فعمدت إلى حيلة هداها إليها القلب المحب - وقد طالما فتق الحب حيلاً - وهي أن تتستر بلباس الرجال فلا يبقى لحبيبها - وهو لم ير وجهها قط - من عذر في رفض معاونتها إياه ومقاسمتها أخطاره.

خلعت عليها لباس أبيها، وهرولت إلى غرفة الحبيب فنبهته إلى الخطر المحدق به وعرضت عليه أن يستصحبها في هربه.

تمنع عبد الرحمن في بادئ الأمر قائلاً: إنه يؤثر الفرار بصحبة أخيه الصغير دون أن يعرض أحداً من أصحابه وأعوانه للهلاك. ولكن الفتاة ألحت عليه طالبة أن تكون دليلاً له في الصحراء، فقبل الشاب شاكراً مسروراً، وخرج الثلاثة من منزل الصياد قبيل غروب الشمس وألقوا بأنفسهم في النهر لاجتيازه سباحة.

نزلوا إلى الفرات وهم ثلاثة، لكن الفتى الصغير غرق في النهر، ويقال إن سهماً أصابه من مطارديه زبانية العباسيين، فلم يصل إلى الضفة الأخرى إلا عبد الرحمن ورفيقته زبيدة.

***

اجتاز الفتيان قفار الشام فجبال لبنان ففيافي فلسطين فصحراء سيناء شريدين تائهين، يختفيان نهاراً ويسيران ليلاً، متسللين كاللصوص، عائشين من الاستعطاء واستجداء الأكف حتى بلغا مصر وجاوزا القيروان.

وهنالك كادت سيوف العباسيين تنالهما لأن العيون والأرصاد كانت قد نقلت إلى الحاكم العباسي خبر الشريد الطريد، إنما قدر الله أن يفلت ذلك البطل، وكان قد لحق به خادم أمين يدعى «بدر» فتابع الثلاثة - عبد الرحمن وبدر وزبيدة - سفرهم، وبلغوا المغرب حيث نزلوا على بعض أعوان الأمويين ومريديهم من البربر.

***

بعث عبد الرحمن بالفتاة والخادم - وهو لا يزال يظن زبيدة رجلاً - إلى من كان بالأندلس مقيماً على الولاء لبني أمية.

وكان أهل الأندلس يومئذ على شقاق وانقسام ما بين عربي يطالب بالسيادة، وبربري ينازع العربي فيها، زد على ذلك انقسام العرب أنفسهم إلى مضري ويمني.

أخذ بدر يبث الدعوة لمولاه، وعرفت زبيدة أن تستجلب القلوب إلى من كان قلبها يهواه، وأن تحمل رجال الجيش الذين كانوا من أصل شامي على أن يبايعوا سليل بني أمية، فأرسلوا وفداً منهم للترحيب به واستدعائه إلى الجلوس على عرش آبائه. وكان ذلك في أواخر الشهر التاسع سنة ٧٥٥ ميلادية.

تغلب عبد الرحمن على أعدائه ومنافسيه واستقام له الأمر، فجدد مجد العرب في الغرب، وبنى لعاصمة ملكه قرطبة سوراً جديداً، وشيد مسجدها الأثري، وقطع الخطبة للخليفة العباسي وهو حينذاك المنصور الذي كان يهاب جانبه ويلقبه بصقر قريش.

وعرف عبد الرحمن في التاريخ منذ ذلك العهد بعبد الرحمن الداخل، أي الأول، لكنه لم ينس في عزه ومجده شريكه في شقائه وآلامه، الفتاة زبيدة، فشاء أن يرفعها، وهو لا يزال يظنها رجلاً إلى مصاف الوزراء.

خلت الفتاة بأميرها بعد أن خلعت عنها ثياب الرجال، وإذا به يرى فتاة ترنو بعينيها إليه. ولكن عبد الرحمن الذي عرف كيف يستعيد مجد آبائه، لم يعرف أن يقرأ ما فيهما من غرام، وما تنمان عليه من وجد وهيام. فأعظم نفس الفتاة وبأسها، ودعا رجال جيشه وعظماء قواده وفاخرهم «بفارسهم الجميل»، ذلك هو اللقب الذي خلعه عبد الرحمن على «زبيدة».

ولكن الفتاة لم تركب متن الأهوال وتهجر خدر أبيها ووطنها طمعاً في نيل شهرة أو إحراز جاه، إنما حملها الحب وحده على جناحيه فجرت تقطع الصحارى والديار لتنعم يوماً بلقاء مَن تحب.

على أنها قرأت في عيني عبد الرحمن سطوراً غير التي كتبتها هي في عينيها. فأصابها من ذلك غم وهم، وأدركها وجد سار بها في طريق اليأس.

لكنها عللت النفس بالآمال، وباتت ترقب ساعة اللقاء، ولم تدر أن عبد الرحمن كان منصرفاً عنها إلى رفع شأن مملكته، والحنين إلى بلاده ومسقط رأسه، وقد نم على حنينه الأبيات الآتية التي نظمها في ديار الغربة:

أيها الراكب الميمم أرضي	أقر مني بعض السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

***

فكر عبد الرحمن في أمر الفتاة زبيدة، وأراد أن يعقد زواجها على قائد من كبار قواده، أو أمير من أمراء مملكته، ففاتح في ذلك صديقه القائد الشاب عبد الملك بن قيس الغاني، فقبل الرجل شاكراً فرحاً ما عرضه عليه مولاه.

ولما أفضى عبد الرحمن إلى صديقته زبيدة بما يجول في خاطره وبما عزم على تنفيذه من أمر زواجها، طرحت نفسها على قدميه وبللتهما بالدموع قائلة:

- افعل ما شئت يا مولاي فالأمر أمرك والإرادة إرادتك!

وأمر عبد الرحمن بإقامة الأفراح في القصر احتفالاً بزفاف زبيدة، ودعا أمراء مملكته وقواد جيشه إلى وليمة تصدرها بنفسه، فتجلت قرطبة في تلك الليلة بأبهى حلة من الأنوار.

لكنهم بحثوا عن زبيدة فلم يجدوها في خدرها.. بل وجدوها في حجرة الملك، تذرف الدموع وتتأوه.

فأبلغوا الأمر إلى عبد الرحمن الداخل، وصعد الملك بنفسه إلى حجرته، وإذا به

أمام الفتاة المسكينة تسلم الروح.

رفعت إليه نظرها، فزالت الغشاوة عن عينيه وقرأ في ذلك النظر ما كان يجب أن يقرأه من زمن بعيد!

عرف عبد الرحمن أن زبيدة لم تشاركه آلام الغربة ومشاق السفر إلا لأنها كانت تحبه، وأنها لم تلق بنفسها في المخاطر والأهوال إلا على أمل الوصال.

لكنه عرف ذلك بعد فوات الوقت، فأكب على الفتاة يقبلها، وقد علا جبينها اصفرار الموت.

رفعت إليه زبيدة نظرتها الأخيرة. وتمتمت كلمات لم يفهم منها عبد الرحمن إلا كلمة واحدة:

- السم! السم!..

فأخذ رأس الحبيبة المسكينة بين يديه، وضمه إلى صدره، فلفظت زبيدة نفسها الأخير على ذلك الصدر، صدر الرجل الوحيد الذي أحبه قلبها والذي لم يفطن إلى ذلك الحب إلا بعد أن توقف قلبها عن الخفقان.

وتساقطت الدموع غزيرة من عينيْ عبد الرحمن الداخل، البطل العظيم، الذي عرف أن يدبر شؤون مملكة بأسرها، ولكنه لم يعرف أن يداوي قلباً جريحاً.

فوضع قبلة أخيرة على جبين رفيقته في الهرب، وتذكر ذلك البيت من الشعر الذي نظمه لوطنه:

قد قضى الدهر بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

كوثر

أرسل خمارويه بن أحمد بن طولون في طلب «ابن يعقوب» الطبيب القبطي الذي يقر الجميع بعلمه وبراعته وقال له:

- يا ابن يعقوب، إنني أضع فيك أملي وثقتي، لقد قيل لي إنك الرجل الوحيد الذي في مقدوره أن يشفي زوجتي المحبوبة كوثر من الداء المجهول الذي تشكو منه، وكوثر يا ابن يعقوب نصرانية النشأة مثلك، اعتنق أبوها القبطي الإسلام فحذت حذوه، ووقع عليها اختياري فاتخذتها زوجة لي. وأحللتها بين نسائي مكانة سامية، فهي أحبهن إليَّ وأبعدهن سلطاناً علي. وهي الآن مريضة ولن أبخل بمال أو جاه على من يشفيها من مرضها. فكن أنت ذلك الطبيب الشافي ولك مني ما تريد!

فأجاب ابن يعقوب:

- سأكون عند حسن ظنك يا مولاي، وسأبذل في سبيل شفائها علمي ووقتي ومهارتي!

***

تولى خمارويه الحكم في مصر بعد موت أبيه أحمد بن طولون في سنة ٢٧٠ للهجرة الموافقة لسنة ٨٨٣ للميلاد، فنسج على منوال أبيه النابغة العظيم، في إدارة شؤون مملكته وتوسيع حدودها، وإعلاء كلمة الطولونيين في الأقطار الإسلامية، وتشييد المساجد والقصور في مصر، وإقامة العدل بين الرعية، ومنافسة الخلفاء في البذخ والترف.

وكان جنديًّا شجاعاً وقائداً محنكاً وإداريًّا حازماً، يعمل لتقوية دعائم ملكه ويستغل مواهب النوابغ من رعاياه، أيًّا كان دينهم وأيّاً كان موطنهم.

قيل له ذات يوم إن الفتاة كوثر، ابنة أحد رجال الحرس، اعتنق الإسلام في عهد ابن طولون، أبرع بنات مصر جمالاً، وأفتكهن لحظاً فأرسل في طلب أبيها، ورغب إليه في اتخاذ ابنته زوجة له، وما أقامت كوثر في قصر خمارويه بضعة أيام حتى كان الطولوني قد أخذ بسحر عينيها، وشعر بأن تلك المرأة المصرية السمراء قد ملكت حواسه وقيدت قلبه بسلاسل الحب، فأضحى لها عبداً ذليلاً، وأضحت له خادمة طائعة.

ولكن القصر كان يعج بالنساء اللواتي جيء بهن من مصر والشام وبلاد الكرج والشركس وغيرها من الأنحاء، فجعلت كوثر العاشقة المعشوقة تتميز غيظاً، وتتقلب على جمر الغيرة، وتنظر بعين الكره والغضب إلى أولئك النسوة اللواتي يشغلن زوجها المحبوب عنها من وقت إلى آخر، وهي التي كانت تود أن تستأثر به لنفسها ليلاً ونهاراً.

ذاقت كوثر أنواع الآلام النفسية، والعذاب المبرح القاسي الذي يعرفه العاشقون المتيمون، والذي يذيب الجسم ويفقد الصواب.

وفي صبيحة يوم شديد القيظ، سمع سكان القصر صياحاً عالياً ينبعث من خدر الزوجة المحبوبة.

وخرجت كوثر إلى القاعات الرحبة، وجعلت تعدو فيها صارخة باكية ضاحكة ثائرة.

وهكذا انتهى الحب بها إلى الجنون!

***

مرت أيام على ذلك الحديث الذي دار بين خمارويه والطبيب القبطي ابن يعقوب. وكان الزوج لا يفارق زوجته لحظة واحدة.

يرقد بجانبها ويهدئ ثوراتها، دون أن يفطن إلى الحقيقة المؤلمة، وهي أن زوجته المحبوبة قد جنت من شدة حبها وأنه الجاني عليها!

وقال الطبيب القبطي كلمته التي أملاها عليه العلم: «لا سبيل إلى الشفاء إلا بواسطة علاج خاص ينفذ بدقة وعناية. وإذا كان خمارويه بن أحمد بن طولون يرغب في القيام بعمل يعيد إلى زوجته عقلها الشارد الضائع، ويسجل له الأيادي البيضاء إلى الأبد، ويجعل الأحقاب تتناقل اسمه مصحوباً بالدعوات الطيبة، ويترك في مصر ذكرى لن تمحوها الدهور في المستقبل، فعليه أن ينشئ في عاصمة ملكه داراً لمعالجة المعتوهين والمجانين، وأن يفتتح الدار بنفسه، ويدخل إليها زوجته المحبوبة لكي تخرج منها بعد مدة من الزمن وقد شفيت مم ألم بها!».

فشيد خمارويه تلك الدار التي أشار الطبيب القبطي بإنشائها، فعرفت باسم «المارستان» وقد عزا المؤرخون خطأ فضل تشييدها إلى أبيه أحمد بن طولون.

وأول من دخل «المارستان» للمعالجة «كوثر» القبطية المسلمة، زوجة خمارويه، وقد خرجت من الدار سليمة العقل والجسم معاً!

وعادت كوثر إلى قصر زوجها، وعاد معها الحب، وأهمل خمارويه نساءه الكثيرات من أجل الحبيبة المختارة.

فحنقن عليه، وجعلت أكثرهن غيره وأبعدهن حسداً وأمهرهن في دس الدسائس وحبك المكائد توغر صدور النساء الأُخر، فأخذن يتآمرن مع رجال الحاشية والحرس، ويبذلن في سبيل ذلك المال والجمال، فتكونت منهن ومن شركائهن عصبة شريرة للفتك بخمارويه واغتياله عندما تسنح الفرص.

***

في ١٩ رجب سنة ٢٧٩ للهجرة الموافقة لسنة ٨٩٢ للميلاد، بويع بالخلافة أبو العباس بن أحمد الموفق المعروف بالمعتضد بالله وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين.

وعزم خمارويه بن أحمد بن طولون على إيفاد رسول من لدنه يحمل إلى الخليفة الهدايا الثمينة، فأرسل في طلب صديقه الحسين بن عبد الله المعروف بابن الخصاص،

وأبلغه قراره في إيفاده رسولاً إلى المعتضد بالله، فتقبل الخصاص قرار مولاه بالرضا والارتياح، وانصرف من القصر على أن يعد العدة للسفر إلى مقام الخليفة.

وخطر له خاطر وهو في طريقه، فجعل يفكر في وسيلة لاستغلال ذلك الخاطر وإحراز المغانم من الخليفة ومن خمارويه في آن واحد.

كان ابن الخصاص يعلم أن لخمارويه ابنة حسناء تدعى «قطر الندى» وأنها أجمل نساء عصرها على الإطلاق، فعزم على أن يعرض على المعتضد اتخاذها زوجة لابنه علي، ليأمن العباسيون في مستقبل الأيام شر الطولونيين ويخمدوا فيهم، بواسطة ذلك الزواج، التمرد والعصيان.

وبعد أيام، شد ابن الخصاص الرحال إلى المعتضد بالله العباسي، ومعه «الهدايا من العين عشرون حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما طراز وعشرون رجلاً على عشرين نجيباً بسروج محلاة بفضة كثيرة ومعهم حراب من الفضة وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة من الذهب والباقي من الفضة وسبع وثلاثون دابة محملة أشياء أخرى كثيرة.».

وصل ابن الخصاص إلى المعتضد بالله، فتقبل الخليفة هدية صاحب مصر وخلع على الرسول وعلى سبعة أشخاص معه.

ثم أفضى ابن الخصاص إلى الخليفة بخبر الفتاة، وقال له إن لخمارويه ابنة فاتنة خليقة أن تكون زوجة لولي عهد الخلافة، على ابن المعتضد بالله وما إن سمع منه أبو العباس هذا حتى انتفض وقال:

- لقد بلغني خبر الحسناء يا ابن عبد الله، فأعهد إليك الآن في أن تطلبها من خمارويه زوجة لي. إن عليًا ليس في حاجة إلى زوجة كقطر الندي، فهي تليق بالمعتضد بالله!

ونفح الخليفة رسول خمارويه بعشرة آلاف دينار، وألح عليه بوجوب العودة إلى مصر على جناح السرعة، لإبلاغ الطولوني رغبة المعتضد بالله وإرادته.

***

مضت سنة، ثم أخرى...

وفي محرم سنة ٢٨٢ للهجرة، الموافقة لسنة ٨٩٥ للميلاد، وصل بغداد موكب فخم، يقوده ابن الخصاص الحسين بن عبد الله، وفي وسط الموكب هودج فيه ابنة الطولوني قطر الندى، التي أرسلها أبوها زوجة للخليفة العباسي.

وكان ابن الخصاص يحمل أيضاً هدية ثمينة ويصطحب معه عم الفتاة. فكتب المعتضد بالله كتابه على قطر الندى، وأدخلت الحريم، ثم زفت إلى الخليفة في شهر ذي القعدة من تلك السنة.

وقال الشاعر:

يا سيد العرب الذي زفت له ... باليمن والبركات سيدة العجم

أسعد بها كسعودها بك إنها ... ظفرت بما فوق المطالب والهمم

ظفرت بمالئ ناظريها بهجة ... وضميرها نبلاً وكفيها كرم

شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى ... فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

وولى المعتضد بالله خمارويه بن أحمد بن طولون على الشام وحلب، ورتب عليه أموالاً وافرة في حكم مصر، وقطع على نفسه عهداً بأن يعاقب كل من يتمرد على حميه ويعلن عليه العصيان.

وأوفد ابن الخصاص إلى مصر، ومعه الهدايا الفاخرة.

***

وقبل أن يصل ابن الخصاص إلى مصر، كان خمارويه قد رحل عنها إلى وقت، فأقام في قصره، في سفح الجبل الذي فوق المدينة أسفل دير مران، وأخذ معه نساءه جميعهن وفي مقدمتهن كوثر.

وكان عند خمارويه أسد رباه في قصره يمتاز عن بقية الأسود بعينيه الزرقاوين ويخلص لسيده إخلاص الكلب الأمين.

وكان خمارويه يعتقد أن أعداءه لن ينالوا منه منالاً ما دام الأسد بجانبه، يحرسه ويرد عنه الأذى.

ولكن حدث قبل رحيله عن مصر أن قالت له إحدى زوجاته، وفي أشد النساء كرهاً لكوثر:

- يقولون يا مولاي إنك تعتمد على أسدك الأليف في الدفاع عن نفسك، وإن في عملك هذا جبناً يجب على من كان في مقامك أن يترفع عنه! وقد أجبت من أطلعني على ذلك القول المتداول، أنك لن تصحب أسدك الأليف في رحلتك إلى الشام. فهل أحسنت أم أخطأت؟

فقال خمارويه:

- لن آخذ الأسد معي إلى الشام. وسوف يعلم أولئك النامون أنهم هم الجبناء!

ورحل خمارويه إلى دمشق مع حرسه ونسائه وغلمانه. ولكنه ترك الأسد الأليف في مصر.

***

كانت النساء قد نجحن في إحكام المؤامرة على خمارويه وإشراك بعض قواد الجيش ورجال القصر فيها، فعزم المتآمرون على تنفيذ خطتهم واغتنم فرصة وجود خمارويه في قصره بالشام لاغتياله.

ومما ساعدهم على تنفيذ تلك الخطة أن الأسد الأليف الذي كان يربض دائماً في غرفة سيده لم يكن معه في دمشق!

وفي أواخر ذي القعدة من تلك السنة التي زفت فيها ابنة خمارويه قطر الندى إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله بن أحمد الموفق، قتل خمارويه بيد «أبي الجيش» الذي ذبحه في فراشه في قصره بدمشق، بمعاونة الخدم ورجال الحرس، وبتحريض نساء الحرم الحواسد الغيرى!

وفي ٣ من شهر ذي الحجة بلغ المعتضد بالله خبر مصرع خمارويه في دمشق، فأمر

بقتل عشرين من خدمه الذين باشروا ذبحه، وكان «أبو الجيش» بين الذين قُتلوا بأمر من الخليفة العباسي.

وأوفد المعتضد بالله رسالة إلى ابن الخصاص طالباً إليه أن يعود أدراجه إلى بغداد فعاد إليها.

***

بكت قطر الندى أباها المحبوب، وطلبت من زوجها الخليفة المعتضد أن يوفد إلى دمشق من يأتي إليها بزوجة خمارويه كوثر التي أحبها أبوها حبًا جمًا.

فسألها المعتضد:

- ولماذا تريدين مني يا قطر الندى أن آتي إليك بزوجة أبيك؟

فقالت ابنة خمارويه:

- إنني لا أضمر لها سوءاً يا أمير المؤمنين بل أحبها. وقد كانت في مصر صديقتي الوحيدة بين نساء القصر، بعد موت أمي وأنا طفلة صغيرة، فإذا طلبت منك الآن أن تجيئني بها إلى بغداد، فما ذلك إلا لأنني أريد إنقاذها من أيدي النساء الأخر، اللواتي سيفتكن بها ويوردنها موارد الهلاك.

فرضي المعتضد بالله أن يجيب زوجته إلى رغبتها، وأوفد ابن الخصاص من جديد إلى دمشق، وزوده بالأوامر الصريحة، قائلاً له أن يترك نساء خمارويه وشأنهن فيرجعن إلى مصر أو يبقين في الشام، وأن يعود إليه بكوثر إلى بغداد.

فشد ابن الخصاص الرحال إلى عاصمة بني أمية، وبلغ قصر آل طولون في سفح الجبل، فإذا به يعج بالرجال والنساء، وقد اختلط فيه الحابل بالنابل، وعمت الفوضى، وأطلق رجال خمارويه أيديهم في السلب والنهب، واستولوا على نساء سيدهم وراحوا يعيثون في البلاد فساداً ويرهقون الناس ويستبدون بالعباد.

بحث عن كوثر المصرية فلم يجدها.

وعلم من جارية عجوز، في قصر خمارويه، أن الزوجة المصرية، خرجت من

القصر على إثر مصرع زوجها، ولجأت إلى كوخ حطاب مصري، في غوطة دمشق.

فأسرع ابن الخصاص إلى ذلك الحطاب وسأله عن كوثر، وأبلغه أمر أمير المؤمنين بإعادتها إلى بغداد معززة مكرمة.

فبكى الحطاب وقال:

- لأبذلن حياتي أيها المولى في سبيل العثور عليها. فقد كان أبوها جاري في مصر، حيث كنا نصطاد السمك معاً في النيل. ولجأت كوثر إلى كوخي الحقير بعد مقتل خمارويه، ومكثت هنا مدة من الزمن.. ثم اختفت منذ ثلاثة أيام.

خشى ابن الخصاص أن يعود إلى بغداد متعثراً بأذيال الفشل، فعزم على البحث عن المرأة، وطاف الغوطة مفتشاً في أنحائها، ومعه الحطاب المصري يدله على الطريق ويرشده على المخابئ.

وبعد أربعة أيام عثر الرجلان على جثة كوثر، طافية على مياه «بردي» وقد احتضنها العليق، فحاكت لها الطبيعة من نسيجها كفناً، وصنعت لها من عُشبها نعشاً.

المجنونة

الشيخ خالد النبكي فارس مغوار وقائد محنك، يأتمر بأمره ثلاثة آلاف رجل بعدتهم الكاملة، وهو يسيطر على أطراف البادية من بعلبك إلى حمص، ويضع نفوذه وشجاعة رجاله في خدمة من يدفع له الثمن الذي يطمع فيه، ولكنه يميل إلى «المماليك البحرية» لأن إحدى زوجاته من بناتهم، ولأن تلك الزوجة أحب نسائه إليه. وهي أم ابنته الجميلة «وسيمة» الفاتكة اللحظ، القوية الساعدين، التي طالما رافقت أباها إلى ميادين القتال، ونازلت الكماة الصناديد في المعارك، من صحراء تدمر إلى جبال لبنان، ثم إلى سيناء وسواحل البحر الأحمر.

وأقسم خالد النبكي يمين الطاعة والولاء للملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر، وكان له عوناً على أعدائه في جميع الحروب التي خاض هذا السلطان غمارها لإخضاع الإمارات والمقاطعات العربية في الأراضي السورية.

ووقع نظر بيبرس ذات يوم، وهو يرد الزيارة لصديقه وحليفه خالد النبكي في مضاربه في سهل البقاع على مقربة من بعلبك، على الحسناء الساحرة العينين الوضاحة الجبين. وكان السلطان قد سمع أخبارها من بعيد وأعجب ببطولتها في الميادين، فقال لصديقه:

- أي أخي خالد! ألا تخشى على ابنتك أذى وهي سافرة تختلط بالرجال كأنها منهم؟ لو كنت مكانك لحبستها في خدرها خوفاً عليها من النفوس الأمارة بالسوء...

فأجابه خالد:

- لا أخشى على وسيمة شيئاً. فهي أخت الرجال في الحرب والسلم، وهي قادرة على صيانة نفسها إذا ما أراد أحد بها شرّاً، أما سمعت بما حدث لها منذ شهور مع الملك القاهر الأيوبي؟

- كلا. ماذا حدث لها مع ذلك الأمير المغرور؟

- لقد التقى الملك القاهر بابنتي ذات يوم وهو قادم إلى دمشق، وكانت وسيمة قد خرجت للنزهة على ضفاف بردي، فاعترضها ذلك الأمير المغرور كما تسميه ووجه إليها الخطاب بلهجة آلمتها، فاستلت الفتاة سيفها ووثبت على ذلك الوقح، فتراجع واستل سيفه أيضاً..

- وهل كانا في عزلة عن الناس؟

- نعم، لم يكن أحد يراهما في تلك الساعة، فاشتبك السيفان، وما هي إلا لحظة حتى كان القاهر يطلق لجواده العنان هارباً والدم يسيل من كتفه.

- بورك في ابنتك يا خالد!

- وفي استطاعتك يا مولاي أن تطلب منه أن يريك الجرح الذي أصيب به في تلك المبارزة الخلوية.

- كيف لم يبلغني خبرها قبل الآن؟

- لا يدهشنك أن يخفي الملك القاهر خبر ما حل به. أما ابنتي فإنها لا تتحدث عن نفسها ولا تذكر فعالها على مسامع أحد، ولم يطلع على هذا الحادث غير والدها.. وأنت يا مولاي.

- إن وسيمة لجديرة بأن تتبوأ المكانة اللائقة بها في قصرنا بمصر يا خالد.

- إن ابنتي وأسرتها وجميع من يلوذ بها ملك لك يا مولاي!

***

تم الاتفاق بين الملك الظاهر بيبرس البندقداري وصديقه وحليفه الشيخ خالد النبكي على أن تدخل وسيمة حرم السلطان وتصبح زوجة شرعية وعلى أن يتعهد لأبيها بألا يطلقها مدى الحياة.

ولكن الفتاة قابلت ذلك القرار بالامتعاض. ثم ثارت على أبيها وصاحت به قائلة:

- إن الفتاة التي تمتشق الحسام وتنازل الفرسان وتقارع الأبطال في الحروب والغزوات، يحق لها يا أبي أن تختار الرجل الذي تريده زوجاً لها بنفسها وبملء إرادتها، وابنتك لا ترغب في حياة القصور وإن كانت قصور الملوك والسلاطين. لقد نشأت في الصحراء وترعرعت في الفلاة، أتسلق الجبال الشاهقة، وأهبط الوهاد السحيقة، وأمرح في السهول المترامية الأطراف حرة طليقة كالهواء الحر الطليق! وأنت تريدني الآن زوجة، بل أَمة لرجل يحبسني وراء الأسوار وفي ظلمات الخدور. إن هذا لن يكون يا أبي!

فوجئ خالد بتلك الثورة التي لم يكن ينتظرها من ابنته وفلذة كبده. ولكنه أدرك خطأه، وأقر للفتاة بأنه تسرع في القبول، ثم جعل يلاطفها ويبسط لها الأسباب التي يجب عليها من أجلها أن تضحي بنفسها في سبيل أسرتها وعشيرتها وبني قومها، ومما قاله لها:

- أي بنيتي الحبيبة العزيزة، أعلم علم اليقين أنك لست كغيرك من ربات الخدور لأنك قوية الإرادة والعزيمة، وإنني لواثق بأنك سوف تسيطرين على زوجك وتملكين اقتياده، فإذا ما أصبحت يا وسيمة زوجة الملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر وسيد هذه البلاد فإن أسرتك سوف تبسط سلطانها أيضاً على هؤلاء الأمراء والزعماء الذين يحيطون بنا ويرهبون جانبنا.. ثم إن هناك أسباباً أخرى..

فقاطعت الفتاة أباها صارخة في وجهه:

- ولكني أحب ابن عمي يا أبي! أحب ابن عمي سليمان حبّاً عظيماً، حبّاً ملك مني الفؤاد والحواس، حبّاً يجب أن ينتهي بالزواج، وسليمان هو الزوج الذي أعلل النفس به، وأريده لي رفيقاً في الحياة... في الحياة الحرة كما نريدها نحن

أن تكون، لا كما يريدها سكان القصور وأبناء المدن! كلا. إن ما اتفقت عليه يا أبي مع الملك الظاهر لن يكون أبداً!

***

كان بيبرس البندقداري يكره الملك القاهر الأيوبي، وهو من سلالة الناصر داود بن المعظم عيسى، وكان الملك القاهر يتظاهر بالولاء لبيبرس ولدولة المماليك البحرية، ولكنه في الحقيقة يمقت السلطان وعشيرته ويدس لهم في السر ويكيد لهم في الخفاء.

كان بيبرس يعلم ذلك ويتحين الفرص للإيقاع بذلك الأمير الدساس الخطر. وحانت الفرصة للتخلص منه بعد أن ثبت له أن الملك القاهر يجمع حوله الأعوان والأنصار ويرمي إلى أغراض بعيدة المدى.

فأرسل في طلبه، على أن يوافيه في دمشق، قائلاً له إنه يرغب في التداول معه في شؤون الدولة!

وكان الشيخ خالد في أثناء ذلك قد تمكن من إيقناع ابنته وسيمة بأن تتظاهر بالقبول، وتطلب من الملك الظاهر بيبرس أن يؤجل عقد الزواج إلى حين، حيثما تضع الحروب أوزارها ويخيم السلام على سورية ومصر.

ووعد الشيخ ابنته بأنه سينتحل لها فيما بعد عذراً ينقذها من زواج لا ترغب فيه. ولكنه كان في الواقع عازماً على إلقائها بين يدي حليفه القوي الجبار، واثقاً أنها سوف ترضى بما قدر لها عندما تصبح سيدة نساء القصر الملكي بمصر.

وكانت الفتاة تقيم في دمشق مع أمها المصرية، في دار قريبة من «القصر الأبلق» الذي كان ينزل فيه بيبرس عندما يحل بأرض الشام.

وهناك في تلك الدار، كانت الفتاة تلتقي بابن عمها وحبيبها سليمان، وكان العاشقان يقضيان ساعات طويلة في عزلة عن العالم، فتبث الحبيبة حبيبها نجواها،

ويفضي الحبيب إلى حبيبته بما يختلج في صدره من شعور وما ينتابه من مخاوف.

***

وفي سنة ٦٧٦ هجرية ظهر في الفضاء نجم مخيف يحيط به شعاع باهر ويتطاير منه شرر عجيب، ثم خسف القمر خسوفاً تاماً فتنبأ المنجمون بأن رجلاً جليل القدر عظيم الشأن سوف يموت في ذلك الشهر.

- شهر المحرم من تلك السنة.

وتساءل الناس قائلين:

- أيكون ذلك إشارة إلى موت الملك الظاهر بيبرس البندقداري، أم أن هناك رجلاً آخر سيحل به القضاء؟

وهلع الملك الظاهر من تلك النبوءة المخيفة، وعزم على السعي إلى تحقيقها في رجل سواه.

وكان قد دعا الملك القاهر لموافاته في دمشق، فعول على قتله في الحال لكي تتحقق فيه تلك النبوءة، كما عول على الرحيل إلى مصر في أقرب وقت بعد أن ينظم شؤون البلاد التي أخضعها بمعونة حلفائه من أبنائها.

ولكنه أراد أن تسبقه زوجته الملقبة بوسيمة ابنة خالد النبكي إلى مصر حيث تستعد مع نساء القصر لليوم العظيم.

وأصدر أوامره بإعداد هودج فاخر يحمل الفتاة إلى مصر مع جواريها وعبيدها وتحرسه في الطريق كوكبة من الفرسان.

ووقع هذا القرار على وسيمة وحبيبها سليمان وقع الصاعقة، وقطعت الفتاة كل أمل في النجاة، ولكنها قالت لابن عمها وهي تودعه قبل رحيلها بيوم واحد:

- ثق يا ابن العم أنني لن أكون لسواك، فإن وسيمة لن تصل إلى مصر حية!

***

وصل الملك القاهر الأيوبي إلى دمشق فاستقبله الملك الظاهر بيبرس بالترحيب، وأنزله ضيفاً عليه في القصر الأبلق بجوار الميدان الأخضر، وأمر غلمانه بأن يعدوا له ولضيفه طعام العشاء في قاعة منعزلة، وأن يمنعوا الناس عنهما في تلك الليلة.

وعهد السلطان إلى بعض رجاله في حراسة الأبواب طول الليل، وكان سليمان ابن عم وسيمة أحد أولئك الحراس.

ودخل الملك الظاهر بيبرس إلى القاعة.

ودخل على إثره الملك القاهر.

وجعل الغلمان يروحون ويجيئون حاملين ألوان الطعام والشراب من كل ما لذ وطاب.

وفجأة، طرقت الآذان أصوات استغاثة:

- إليّ!... إليّ!.. السم!.. السم!..

ودخل الحراس مهرولين إلى القاعة، فإذا بهم أمام الملك القاهر وقد سقط على الأرض وجعل يتقلب كأنه أصيب بمس من الجنون.

وأشار إليهم الملك الظاهر إشارة عقدت ألسنتهم عن النطق، فأدركوا أن مولاهم دس السم لضيفه في الشراب.

وبينما هم يحملون الملك القاهر الأيوبي وقد أصبح جثة هامدة، تناول الملك الظاهر بيبرس قدحه وتجرعه دفعة واحدة.

وما كاد الحراس يخرجون بجثة الضيف حتى طرقت آذانهم صيحات المضيف:

- إليّ!..

- إليّ!... إليّ!.. السم!.. السم!..

فألقوا بالجثة على الأرض وعادوا مسرعين إلى القاعة، وإذا بهم أمام بيبرس يتلوى من الألم ويصيح:

- السم! السم!

ثم تمتم قائلاً:

- لقد أخطأت. فشربت من الكأس المسمومة التي سقيت بها الخمر لعدوي!

***

وكانت وسيمة بنت خالد النبكي متكئة على وسادة تمسح الدموع المتساقطة كالمطر من عينيها، وهي تفكر في حبيبها الذي قضى عليها أن تفارقه إلى الأبد، وإذا بصوت ذلك الحبيب يرن في أذنيها:

- وسيمة! وسيمة!

- سليمان! ما جاء بك الآن إلى هنا وعهدي بك في القصر الأبلق؟

- وسيمة! لن تسافري إلى مصر.

- ماذا تقول؟

- ولن تصبحي زوجة للملك الظاهر.

- لا أفهم!

- لقد مات بيبرس.

- مات؟

- مات مسموماً. شرب من الكأس التي وضع فيها السم للملك القاهر فمات في إثره.

- وأصبحت أنا..

- وأصبحت أنت حرة يا وسيمة.

- حرة؟ حرة؟

رددت الفتاة تلك الكلمة العذبة: «حرة. حرة» ثم خفت صوتها، وجمدت عيناها، وتصلب جسمها، وعلا جبينها الاصفرار، وارتسمت على شفتيها ابتسامة بلهاء.

ورنت في أرجاء الغرفة ضحكة عالية متواصلة، ضحكة ارتعدت لها فرائص سليمان. ضحكة لا تصدر عن شخص مالك لقواه العقلية. فقد كان ذلك الخبر الفجائي الذي حمله سليمان إلى حبيبته شديد الوقع عليها وهي تستعد للفراق الأبدي، للموت انتحاراً، فلم تقو المسكينة على احتماله.

تمايلت بيميناً ويساراً، ثم هوت. فتلقاها ابن عمها بين ذراعيه، ونادى الخدم وعلت الضوضاء في قاعات الدار.

وعندما صحت من إغمائها كان سليمان يضم بين ذراعيه غادة حسناء فاقدة العقل.

***

مات الملك القاهر الذي حاول الاعتداء عليها مسموماً.

ومات الملك الظاهر الذي رغب فيها مسموماً أيضاً.

وبقيت وسيمة بنت خالد النبكي مجنونة.

كل ذلك في ليلة واحدة!

بدر الدُّجَى

توفي محمد بن طغج الملقب بالإخشيد أي ملك الملوك بلغة أهل فرغانة سنة ٣٣٥ للهجرة، الموافقة لسنة ٩٤٦ للميلاد، وتولى بعده على مصر ولداه ولكنَّ كافوراً مملوكه المعروف بالإخشيد نسبة إلى سيده، كان صاحب الأمر والنهي في المملكة إلى أن استأثر بالملك لنفسه، في سنة ٣٥٦ للهجرة الموافقة لسنة ٩٦٦ للميلاد.

كان كافور الإخشيدي من العبيد الخصيان، اشتراه الإخشيد من نخاس حبشي بثمانية عشر ديناراً، فملكه الله الديار المصرية والشامية، وأجمع المؤرخون على أنه كان نابغة عظيماً وعاقلاً فطناً.

وقال عنه محمد بن عبد الملك الهمذاني:

«كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوماً في قصصه: انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى، فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين، ابن بويه ببغداد وهو أشل. وكافور عندنا بمصر وهو خصي! فرفعوا إلى كافور قوله وظنوا أنه يعاقبه، فتقدم إليه بخلعة ومائة دينار وقال: «لم يقل هذا إلا من جفائي له»، فكان الواعظ بعد ذلك يقول في قصصه: لم يكن نجباء من ولد حام إلا ثلاثة: لقمان، وبلال المؤذن، وكافور».

وقد مدحه المتنبي بأبيات كثيرة منها:

قواصد كافور توارك غيره	من قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه	وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

وقال فيه يهجوه:

من علم الأسود المخصي مكرمة	أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في يد النخاس دامية	وقدره وهو بالفلسين مردود

إلى أن قال:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد

***

كان كافور الإخشيدي جالساً ذات يوم في قصره، وحوله جماعة من رجاله وأنصاره، فالتفت فجأة إلى رئيس الغلمان وقال:

- أرسل غلمانك إلى «عقبة النجارين» وليسألوا هناك عن شيخ منجم أعور. فإن كان حيّاً ووجدوه فليأتوني به، وإن كان ميتاً فليسألوا عن أولاده.

فانطلق الغلمان للبحث عن الرجل، وقال كافور لجلسائه:

- لذلك المنجم الأعور في عنقي دين لابد من وفائه، فقد مررت به ذات يوم وكنت حينذاك عبداً رقيقاً في ملك ابن عباس الكاتب، وكانت حالتي رثة. فلما نظر إليَّ المنجم قال: ما اسمك؟ قلت له: كافور. قال: «أنت ترتقي إلى رجل كبير وتبلغ منه مبلغاً عظيماً، ثم تمتلك هذه البلاد ويكبر اسمك بين العباد!».

«فنظرت إلى جيبي لأعطيه شيئاً فما وجدت سوى درهمين فأعطيتهما للرجل. ونسيته منذ ذلك اليوم. ولكني رأيته أمس في منامي، فتذكرته وأرسلت الغلمان يبحثون عنه أو عن أولاده.

«فقد ارتقيت إلى الإخشيد، وبلغت منه مبلغاً عظيماً، ثم ملكت مصر وكبر اسمي بين الناس كما تنبأ لي المنجم، ولذلك فإن له في عنقي ديناً يجب عليَّ وفاؤه كما قلت!» وكذب المنجمون ولو صدقوا.

وبحث الرسل عن الرجل الأعور في عقبة النجارين، وعادوا إلى سيدهم حاملين إليه الخبر اليقين: لقد مات المنجم وترك ابنتين: الواحدة تزوجت والثانية في انتظار الزوج.

فأرسل كافور في طلبهما، واشترى لكل منهما داراً، ونفحهما بمال كثير، وزوج

الثانية، وأدخل زوج الأولى في حاشيته، و أجرى على الأسرتين الأرزاق وأغدق عليهما العطايا.

***

وكان يقيم في مصر في ذلك الوقت رسام إفرنجي يدعى جول بوارو **Jules Poirot** اعتنق الإسلام في بلاد المغرب وجعل يضرب في طول العالم الإسلامي وعرضه، ويتقرب إلى الملوك والأمراء والأقيال، ويجمع في جعبته طائفة من الرسوم النفيسة، ويعلق على الاتجار بها في بلاده، بعد عودته آمالاً بعيدة.

وكان ملوك المسلمين وأمراؤهم يحسنون وفادة ذلك الرجل الإفرنجي الغريب، الذي فضل دينهم على دينه، وأوطانهم على وطنه، ففتحوا أمامه أبواب قصورهم، وأحلوه في مجالسهم محل الإكرام والاحترام.

ووقع نظره ذات يوم على فتاة بارعة الجمال، فتبعها وتمكن من الوصول إليها. وما مضت بضعة أيام حتى كان الشاب قد علق بحبها، فجعل يرقبها في روحاتها وغدواتها، وما لبثت الفتاة أن وقعت من جهتها تحت سلطان الحب، فعلقت بذلك الغريب الظريف الجميل، وتواعد الاثنان على الزواج.

وصنع جول بوارو أو إسماعيل بوارو الإفرنجي لحبيبته رسماً بديعاً أفرغ فيه مهارته وفنه وحبه، فجاء ذلك الرسم آية من آيات الجمال الصامت، كما كانت الفتاة المرسومة آية من آيات الجمال الناطق!

وكتب بوارو اسمه في ذيل الرسم، وبجانبه اسم الفتاة المحبوبة: بدر الدُّجَى!

ولكن الأقدار كانت تخبئ للعاشقين مفاجأة قاسية. فإن بدر الدجى لم تكن غير ابنة المنجم الأعور الثانية، التي أبى كافور الإخشيدي أن يزوجها الشاب الإفرنجي الغريب، واختار لها زوجاً من قواد جيشه المقربين إليه.

ولم تجرؤ الفتاة على العصيان والتمرد، بل اضطرت مرغمة إلى الإذعان والعمل بإرادة كافور وإرادة أختها، فرضيت بالرجل الذي اختاروه لها زوجاً. ولكنها بكت كثيراً وبكى معها الرسام الإفرنجي العاشق حظه وسعادته!

ورحل بوارو إلى القيروان.

وبقيت بدر الدجى مع زوجها في مصر.

***

التقى الرسام في القيروان بالطبيب يعقوب بن كليس اليهودي الذي اعتنق الإسلام مثله، وخدم الإخشيديين في مصر فأساء إليه كافور في ساعة غضبه، ورحل الطبيب إلى القيروان حيث التجأ إلى المعز لدين الله الفاطمي صاحب بلاد المغرب.

وجعل يعقوب بن كليس يوغر صدر المعز على كافور، يحثه على مهاجمته وانتزاع وادي النيل الخصب منه، ونقل مركز الخلافة الفاطمية من القيروان إلى مصر، ومن ثَم إلى بغداد بعد طرد العباسيين منها، لأن الخليفة العباسي المطيع لله بن المقتدر أضعف من أن يصد جيوش المغاربة عن الديار الإسلامية الخاضعة له.

وانضم الرسام الإفرنجي المسلم، إسماعيل بوارو، إلى الطبيب اليهودي المسلم يعقوب بن كليس في سعيه لدى المعز لدين الله، وجعل الشريكان يفضيان إلى الخليفة الفاطمي بمعلومات يجهلها، وتفاصيل لم يسمع بها من قبل عن امتعاض المصريين من الحكم الإخشيدي، وميلهم إلى الفاطميين الذين ينتسبون إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وعن الكنوز الكثيرة المخبأة في بطن الأرض وتحت جدران المساجد، والتي عثر على بعضها في عهد الطولونيين وعهد الإخشيديين.

وكان المعز لدين الله يعلل النفس منذ اليوم الذي آلت فيه إليه الخلافة بالإغارة على مصر وفتحها. فوجدت أقوال الطبيب والرسام هوى في نفسه، وعزم على تنفيذ الخطة التي فكر في تنفيذها.

وحدث مرة أن خاطب الطبيب ابن كليس عن رفيقه الإفرنجي وعن مهارته في الرسم، فرغب إليه المعز في الاطلاع على بعض رسومه، وجاءه بوارو بذلك الرسم الذي صنعه لحبيبته بدر الدجى عندما كان السعد لا يزال ضاحكاً له في مصر.

وقع نظر المعز على ذلك الرسم فأُخذ بجمال الوجه الذي يمثله، وسحر العينين

اللتين تبعثان ضياء لم يعهده المعز في غيرهما من العيون.

فالتفت إلى بوارو سائلاً:

- صورة من هذه يا ابن الكرام؟

فأوشك بوارو أن يطلعه على أمره ويقص عليه قصته. لكن خاطراً خطر له فجأة فقال:

- هي صورة إحدى نساء كافور الإخشيدي يا مولاي، وقد حدثتني عنك في خلوة من خلوات القصر في مصر، وإن كنت قد صنعت لها هذا الرسم فلأنني كنت عازماً على المجيء إلى هنا، وقد أردت أن أحمل إليك تحيتها ورسمها.

فقال المعز:

- أفي مصر نساء يبلغن هذا المبلغ من الجمال؟

فأجابه الرسام الخبيث:

- جميع نساء مصر يجارين بدر الدجى جمالاً وسحراً!

فسكت المعز لحظة ثم قال:

- سوف نرى ذلك أيها الغريب. وسوف نشاهد بدر الدجى في قصرها بمصر قريباً بعون الله. فقد عزمنا على إرسال جيشنا إلى ضفاف النيل.

***

مات كافور الإخشيدي قبل أن تتدفق جيوش المعز على مصر، وترك الملك من بعده لأبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، وذلك في سنة ٣٥٨ هجرية الموافقة سنة ٩٦٨ للميلاد.

وكان القائد الفاطمي المنصور قد احتل الإسكندرية وجعل يدير شؤونها باسم الخلفاء الفاطميين.

وفي سنة ٣٥٩ هجرية، الموافقة سنة ٩٦٩ للميلاد، اغتنم المعز لدين الله أبو تميم

معد بن المنصور العلوي الفاطمي، رابع الخلفاء الفاطميين فرصة انتشار الفوضى في مصر، فسير إليها مولى أبيه «جوهر» في مائة ألف مقاتل لفتحها، فدخلها الجيش الغازي بلا حرب ولا قتال.

وكان القائد جوهر مملوكاً رومياً، جاء به والد المعز من بلاد الصقالبة. فعرف في المغرب باسم «جوهر الصقلبي» وحرف المؤرخون ذلك الاسم فيما بعد فجعلوه خطأ «الصقلي» نسبة إلى جزيرة «صقليا» أو «سيسيليا» كما يسميها الإفرنج.

دخل جوهر الصقلبي مصر، وخطب فيها للمعز أيام الجمع، وأمر المؤذنين بأن يؤذنوا: «حي على خير العمل» تنفيذاً لإرادة الفاطميين. فشق على الناس ذلك لكنهم صبروا لحكم الله.

وأرسل إلى المعز يبشره بفتح الديار المصرية، وبالخطابة إليه في الجوامع، وبأنه سيبني بالقرب من مدينتي الفسطاط والقطائع مدينة جديدة تليق بالمعز لدين الله ثم يدعوه للانتقال إليها مع حاشيته ومعيته ونسائه وغلمانه.

ونظم ابن الهاني الأندلسي في فتح مصر قصيدة امتدح فيا القائد جوهر الصقلبي مطلعها:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبني العباس قد قُضِيَ الأمر

وفي تلك السنة، شرع جوهر في بناء المدينة الجديدة شمال الفسطاط والقطائع، وجعلها مربعة الشكل، وشيد فيها قصرين لإقامة المعز لدين الله، وأطلق على المدينة اسم «القاهرة المعزية».

واسم «القاهرة» مستمد من كوكب «المريخ» أو «القاهر» لأن أسس المدينة المعزية قد وضعت، عملاً بإرادة علماء الفلك، وبناء على رغبة المعز، تحت سلطان ذلك الكوكب الجبار.

وبنى جوهر الصقلبي في قلب المدينة الجديدة جامعاً أطلق عليه اسم «الجامع الكبير أو الأزهر» وجلب إليه العلماء والفقهاء من جميع الأقطار الإسلامية، فما لبث

ذلك الجامع أن أصبح أكبر معهد إسلامي في العالم.

واستغرق بناء القاهرة ثلاثة أعوام، وعندما أصبحت لائقة بالخليفة الفاطمي، أرسل القائد جوهر يدعو مولاه إلى القدوم للإقامة في عاصمة ملكه الجديدة.

وفي سنة ٣٦٢ هجرية، الموافقة سنة ٩٧٢ للميلاد، قدم المعز لدين الله إلى مصر، حاملاً معه من بلاد المغرب والقيروان كنوزاً لا تحصى، وأطباقاً من الذهب والفضة، ومخطوطات نادرة وسجاجيد فارسية وجواهر ثمينة، وجيء له أيضاً إلى مصر بنسائه وغلمانه وجياده ورفات أجداده، بحيث لم يبق في القيروان والمغرب أثر ينم على قيام الخلافة الفاطمية في تلك الديار.

ووصل المعز لدين الله إلى القاهرة في شهر رمضان من تلك السنة، وأقام في القصرين اللذين أعدهما له قائده جوهر الصقلبي.

وجاء إلى القاهرة مع القائد جوهر الطبيب اليهودي المسلم يعقوب بن كليس. وجاء إليها مع المعز لدين الله الرسام الإفرنجي المسلم إسماعيل بوارو.

وتذكر المعز، عندما حل في القاهرة، ما نقله إليه الرسام الغريب عن الغادة الحسناء بدر الدجى، وعن نساء مصر وجمالهن وسحرهن.

فأرسل في طلبه، وجاء معه صديقه الطبيب ابن كليس، فقال المعز لبوارو:

- دلني على بدر الدجى أيها الغريب، فإنني لم أجد لنساء الإخشيديين أثراً في هذه الديار، ولم أسمع عنهن شيئاً، فماذا تعلم؟

سكت الرسام هنيهة، ثم ألقى بنفسه على قدمي المعز لدين الله، وقال بصوت متهدج ولهجة المذنب النادم:

- لقد خدعتك يا مولاي، فبدر الدجى ليست من نساء الإخشيديين، ولم تكن قط من ساكنات قصورهم، بل هي فتاة أحببتها ففرقت الأقدار بيني وبينها، وتزوجها رجل من رجال كافور الإخشيدي، وقد بحثت عنها في هذه البلاد بعد عودتي فعلمت أن زوجها فر مع الفارين، ثم قتل في عراك نشب بينه وبين

بعض جنودك. فبدر الدجى تقيم الآن وحيدة منعزلة في الدار التي أهداها إليها كافور.

وبعد فترة سكوت، قال الرسام:

- والآن، الأمر أمرك يا مولاي، والإرادة إرادتك. فماذا يجب أن أصنع؟

فضحك المعز وقال للطبيب ابن كليس:

- مر لصديقك يا يعقوب بما يحتاج إليه من مال، فإننا نجري عليه الأرزاق ونعطيه في القاهرة المعزية قصراً فاخراً، أما المرأة فإننا نتركها له. فلتكن له زوجة وليعد إلى رسومه وأحاديثه الغرامية معها، وأما نحن، فإننا لم نفتح الديار المصرية من أجل نسائها، بل من أجل إقامة الخلافة الفاطمية فيها، وجمع كلمة المسلمين حول هذه الخلافة في القاهرة المعزية.

***

تزوج جول بوارو، أو إسماعيل بوارو، بدر الدجى وقد جمعت الأقدار بينه وبينها بعد طول الفراق. وعاش الاثنان سعيدين في ظل المعز لدين الله.

وعين الطبيب يعقوب ابن كليس وزيراً للمعز، فكان ساعده الأيمن في إصلاح شؤون الديار المصرية.

وكان عصر المعز من أزهى عصور مصر.

وجمع الخليفة الفاطمي إلى سعة الاطلاع والعلم، تسامحاً في الشؤون الدينية، ومهارة في الحكم والإدارة.

ولم يقم المعز لدين الله في مصر أكثر من ثلاث سنوات. فقد مات في سنة ٣٦٥ هجرية الموافقة سنة ٩٧٥ للميلاد.

الأميرة إيدا

الأمير غليوم التاسع شاب قوي العضلات بهي الطلعة، لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره، دفعه حبه للمخاطرات إلى اللحاق بالجيوش الصليبية الأولى، التي تدفقت من الغرب لإنقاذ قبر المسيح - كما يقولون - من أيدي المسلمين.

وغليوم يبسط سلطانه على مقاطعات أكيتانيا وجسوكونيا وتولوز. وهو بعيد الشهرة في وطنه فرنسا، يخشاه الأمراء الآخرون ويحسب له الفرسان في الميادين كل حساب. ولم يكن غليوم متديناً، بل كان يهزأ بتعاليم الدين أيًا كانت، وإذا كان قد انضم إلى الجيوش الصليبية على رأس كتائبه الكثيرة، فذلك لكي ينتقل من الغرب إلى الشرق، وينازل فرسان العرب في حومة الوغى، ويطلق لجواده العنان في جو لم يألفه من قبل، ولكي ينظم الشعر أيضاً، لأن غليوم التاسع كان شاعراً، وقد دون اسمه في تاريخ الأدب الفرنسي بين فحول الشعراء وأرقهم إحساساً وأبعدهم خيالاً.

وذلك الأمير الشاب كان بين الأمراء والأقيال الغربيين أشدهم اندفاعاً في حمل النساء المسيحيات في أوروبا على الالتحاق بالكتائب الصليبية، وتجشم المخاطر والمصاعب لزيارة الأرض المقدسة، اعتقاداً منه بأن وجود الجنس اللطيف في صفوف الجنود لابد أن يبعث في صدورهم الشجاعة، ويضرم فيهم نيران الحماسة وحب التضحية.

وبين النساء اللواتي حملهن غليوم التاسع على اللحاق به إلى بلاد الشرق، أميرة نمساوية تدعى «إيدا» كان فرسان أسرتها جميعهم قد انضموا إلى الجيوش الصليبية، فلحقت بهم إجابة لإلحاح الأمير غليوم التاسع عليها، وشاءت الأقدار أن تنتهي حياة تلك الأميرة النصرانية في بلاد المسلمين بسر من الأسرار التي لا تزال إلى الآن غامضة، ولم يتمكن المؤرخون بعدُ من تمزيق الحجاب عنها.

ففي سنة ١٠٩٩ م. بدأت المعارك الدموية بين الغزاة القادمين من الغرب، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم «جنود الحرب الصليبية»، وبين فرسان العرب المسلمين ومن اعتنق الإسلام معهم من أمم الشرق.

وبعد أن وقعت مناوشات عديدة بين كتائب غليوم التاسع وكتائب المسلمين، وصل الأمير الفرنسي الشاب على رأس جيشه إلى سهول ممتدة على مقربة من هرقلية، حيث التقى الصليبيون بجيش لجب يقوده الملك الغازي وأمراء الأقاليم السورية. وكانت إيدا النمساوية بين النساء اللواتي سرن مع كتائب غليوم بغية الوصول إلى أورشليم والتبرك بتقبيل القبر المقدس في المدينة التاريخية.

وكانت موقعة هائلة، أظهر فيها الفريقان من الشجاعة والاستهتار بالموت والاستبسال في الدفاع، ما يفوق الوصف، وأسفر القتال عن انهزام الصليبيين وانتصار الملك الغازي وحلفائه انتصاراً مبيناً.

وتمكن فريق من الصليبيين من الفرار، وبينهم الأمير غليوم التاسع الفرنسي، الذي وصل مع فلول جيشه إلى أنطاكية، فالتجأ إلى أسوارها وحاول هناك أن يجمع شتات كتائبه المبعثرة ويستأنف القتال مع بقية الأمراء القادمين من الغرب.

وبحث عن الأميرة إيدا النمساوية فلم يجدها، وعهد إلى جنوده في البحث عنها فلم يقف لها أحد على أثر، واعتقد الجميع أن الأميرة الحسناء قد لقيت حتفها في تلك المعركة العظيمة، وأن جثتها راحت طعاماً للنسور والغربيان.

وأقيمت الصلاة على روحها، وبلغ خبر مصرعها أبناء قومها فأعلنوا الحداد على أميرتهم المحبوبة، ولبس أهلها عليها السواد!

***

ومرت الأعوام وتعاقبت الحروب، وجاءت جيوش صليبية أخرى على إثر الجيوش الصليبية الأولى، ووقعت معارك دموية أخرى في الأماكن التي شهدت المعارك الدموية السابقة.

وفي ذات يوم عادت إلى أوروبا من الأقطار الشرقية أميرة بافارية كانت ترافق الصليبيين في حربهم الأولى. وقصت على الناس حادثاً أصغوا إليه مبهوتين مذهولين.

قالت الأميرة البافارية: إن إيدا لم تمت بل وقعت أسيرة في أيدي المسلمين في معركة هرقلية، وإن قائد الجيوش الإسلامية حملها معه إلى قصره، فتزوجها ورزق منها أبناء لا يزالون على قيد الحياة.

وانتشر خبر ذلك الزواج، وراح أبناء الأميرة النمساوية من زوجها الأول يبحثون عن حقيقة أمر أمهم، ويستطلعون أخبارها.

ولكنهم لم يقفوا على الحقيقة.

وفي سنة ١١٧٠ للميلاد التقى الإمبراطور فردريك برباروس الألماني بالأمير قليج أرسلان المسلم، في بلاد الشرق، فقال الأمير المسلم للإمبراطور النصراني إنه حفيد امرأة نمساوية وقعت أسيرة بين أيدي أبناء قومه، فتزوجها جده، ورزق منها ابنه عماد الدين، والد قليج أرسلان صاحب هذا الحديث.

ونقل هذا الخبر إلى النمسا، فعاد الناس إلى التحدث عن تلك الأميرة التي اختفت في معركة هرقلية، والتي يؤكد المسلمون أنها لم تمت بل تزوجت أميراً من أمرائهم استولدها أبناء جلسوا من بعده على العروش.

وأراد أحد الأمراء النمساويين من أسرة «إيدا» أن يقف على الحقيقة بنفسه، فشد الرحال إلى الشرق، وجعل يطوف على قصور الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى وسورية، ويطرق أبواب العظماء والصعاليك، باحثاً سائلاً مستفهماً، لعله يعثر على أدلة تثبت له أن الجدة التي انقطعت أخبارها واختفت آثارها قد وقعت فعلاً في أسر المسلمين وتزوجت أميراً منهم، لكنه لم يعثر على شيء، ولم يجد في القصور التي حدثه أصحابها عن الأميرة إيدا النمساوية ما يثبت الإشاعة أو ينفيها. غير أن أميراً سوريًّا دفع إليه قطعة من الحرير المزركش وخنجراً مرصعاً بالجواهر وقال له: «إن

هذا الخنجر كانت تحمله الأميرة التي وقعت في أسر المسلمين، وهذه قطعة من ثوبها فخذهما أيها الغريب!».

أخذ الأمير النمساوي الأثرين وعاد إلى بلاده، ولكن أبناء الأسرة لم يجدوا فيهما ما يثبت أنهما كانا لجدتهم «إيدا» أو لغيرها من النساء.

وظل أمر الأميرة إيدا سرّاً مجهولاً معلقاً بين النفي والإثبات. أما الأمير غليوم التاسع فقد دونه في قصيدة رثى فيها النمساوية الحسناء التي «ماتت في حومة الوغى في سهول هرقلية!».

ثريا

عندما انتهى الجندي «غليوم» من كلامه، نظر إليه مولاه «روجيه بيكون» وسأل:

- أواثق أنت مما تقول؟

فانحنى الجندي إلى الأرض وأجاب:

- نعم يا مولاي!

سكت روجيه لحظة أطرق فيها مفكراً ثم رفع رأسه وسأل ثانية:

- وهل عرفتك الفتاة كما عرفتها أنت؟

- عرفتني.. وتذكرت تلك الأيام السعيدة التي كنت أقوم فيها بخدمتكما هناك في قصر والديكما في سكوتلندا.

- ما العمل إذن؟ وماذا قالت لك؟

- قصت عليَّ قصتها، وحدثتني عما قاسته من عذاب وما تجرعته من مرارة، منذ وقوعها في الأسر إلى اليوم.

- ينبغي لنا أن ننقذها. وسأضحي في سبيل ذلك بكل شيء. لن أذوق راحة بعد الآن ما دامت أختي ترسف في قيود الذل والعبودية.

- سننقذها يا مولاي.. يجب أن ننقذها..

- سأرفع الأمر الليلة إلى مليكي ريكاردوس قلب الأسد لكي يرى رأيه فيه!

***

نهض «روجيه بيكون» وجعل يروح ويجيء في مضربه كأسد أصابه سهم حاد. كان يحب أخته «ماري» حباً جماً. وعندما لبى النداء العام، وسافر مع جيش

ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنجليز إلى الأراضي المقدسة متطوعاً في الحروب الصليبية، ألحت عليه أخته أن يصطحبها معه، فأجابها إلى رغبتها وسافر الاثنان معاً إلى السواحل الشرقية.

***

كان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد سحق جيش الفرنجة في «طبريا» ومزق شمل الصليبيين شر ممزق، وارتجع منهم بيت المقدس وبسط سلطان العرب على سورية ومصر من جديد.

ودعا ذلك الانتصار الباهر ملوك الغرب إلى تجريد حملة جديدة على الشرق. فدقت الأجراس والنواقيس ودوت الطبول وهتفت الأبواق وعلت أصوات المنادين إلى الجهاد. فتقدم الشبان والكهول من كل فج وصوب إلى معسكرات الجيش، في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا. وحمل البحر الزاخر من الغرب إلى الشرق جحافل الحرب الصليبية الثالثة بقيادة الأمراء الثلاثة: بربروس الألماني وفيليب أوغست الفرنسي وريكاردوس قلب الأسد الإنجليزي.

وكان ذلك في سنة ١١٨٩ للميلاد الموافقة سنة ٥٨٥ للهجرة.

مات العاهل الألماني غرقاً في الطريق، ووصل رفيقاه بجيشهما المشترك أمام عكا الحصينة فهاجما أسوارها واستوليا عليها بعد قتال عنيف.

هناك جرح روجيه بيكون بضربة مزراق اخترقت كتفه اليسرى فنقل مع المصابين من أبناء قومه إلى المستشفيات.

وعندما ابتعد فرسان العرب عن الأسوار احتملوا معهم الأسرى والسبايا. وكانت الفتاة «ماري» أخت الجندي «روجيه» بين النساء اللواتي سباهن الجنود!.

سنة ١١٩١ ميلادية الموافقة سنة ٥٨٧ للهجرة.

الفتاة تدعى الآن «ثريا» وتقيم في قصر الملك الناصر يوسف صلاح الدين بين السراري والجواري، وقد حكم عليها القدر أن تقضي بقية حياتها بعيدة عن وطنها

وأبناء عشيرتها.

أشفق عليها الملك العربي عندما قصت عليه قصتها، فأمر بأن لا يلحق بها أذى وأن تظل حرة في حدائق القصر وردهاته الواسعة.

لكنها كانت كالعصفور السجين تطوف في أرجاء القصر ناظرة إلى النور من خلال السجف الشفافة والنوافذ الضيقة، إلى الغابات ترتع بها الثعالب والضباع وإلى مسارح الغزلان في سفوح الجبال، إلى الفضاء اللا نهائي تسبح فيه النسور والعقبان.

حسدت الطيورَ الصغيرة والجوارح تطاردها لأن تلك الطيور حرة في فضائها!

وآثرت استنشاق هواء ميادين القتال وقد سممته نتانة الجيف وعفونة الجثث، على استنشاق هواء القصور وقد امتزج بعبير الورود والياسمين!

هناك وعلى تلك الحالة رآها خادم روجيه - الجندي «غليوم» - وكان مولاه ريكاردوس قلب الأسد قد بعثه برسالة إلى ملك العرب عمد الجندي إلى الحيلة وتمكن من محادثة الفتاة. فعلم منها كيف وقعت في الأسر وأنها تتحين الفرصة السانحة للفرار من سجنها.

ولكن كيف السبيل إلى الفرار والقصر يعج بالنساء والرجال، والحدائق محاطة بالأسوار العالية، والحرس والجنود يملأون السهول والطرقات؟

حمل الجندي الخبر إلى روجيه بيكون، فأسرع الشاب إلى مولاه الملك وألقى بنفسه على قدميه باكياً، طالباً منه المعونة لإنقاذ أخته من الأسر.

فطيب ريكاردوس خاطره وهدأ روعه، ووعده بأنه سيحقق أمنيته قائلاً له:

- اعلم أن السلطان صلاح الدين شهم همام، شريف النفس عالي الهمة عادل رحيم، وقد أثبتت لي الحوادث الماضية أن عند المسلمين أبطالاً لا تقل شمائلهم عن شمائل أبطالنا. ألا تذكر يا روجيه تلك الموقعة التي التحمنا فيها مع جنود الأمير سيف الدين، على مقربة من يافا، والتي قتل فيها جوادي، فأرسل إليَّ ذلك الأمير الشجاع حصانين من خيرة جياده، طالباً مني أن لا أكف عن

القتال بل أمضي فيه إلى النهاية؟ ألا تذكر أيضاً أنني قلدت ابنه الشاب سيف الفروسية في ميدان القتال اعترافاً مني بجرأته وشجاعته ونزولاً على رغبة أبيه؟ إننا يا روجيه نحارب أبطالاً مثلنا، يضعون قواعد الشرف وتقاليد الفروسية نصب أعينهم في كل ظرف وحال. وسأكتب إلى صلاح الدين طالباً منه أن يعيد إليك أختك ولن يرفض لي رجاءً.

فشكر الجندي للملك عطفه عليه، وقال له:

– هذا هو أملي ورجائي أيضاً يا مولاي. فقد قال صلاح الدين مرة في مجلس جمع أقطاب العرب في هذه البلاد: «لن يقال إنه وجد بين من حكموا العرب أكرم من يوسف صلاح الدين!».

***

وكتب ملك الفرنجة إلى ملك العرب الخطاب الآتي:

«أيها المولى!

«حامل خطابي، جندي من جنودي البواسل، وهو بطل لاقى أبطالك في الميادين، وأبلى مثلهم في القتال البلاء الحسن، وقعت أخته أسيرة فساقها رجالك إلى قصرك. كانت تدعى ماري، فأطلقتم عليها اسم ثريا. وللملك الإنجليز رجاء يفضي به إلى ملك العرب: إما أن تعيد إلى الأخ أخته، وإما أن تحتفظ به أسيراً معها. فلا تفرق بين من جمعهما الله ولا تحكم على عصفور بأن يعيش بعيداً عن عشه.

«إني في انتظار قرارك. وأذكرك بقول إمامكم عمر بن الخطاب وقد تلقنته عن صديقي الأمير حارث اللبناني: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

***

فامتطى روجيه بيكون أسرع الجياد، وراح ينهب الأرض نهباً إلى مقر السلطان وسجن شقيقته.

ومثل بين يدي الملك الناصر، فدفع إليه الكتاب ووقف ينتظر الرد وقلبه يخفق وشفتاه تختلجان.

قرأ صلاح الدين الكتاب ورفع نظره إلى الشاب المضطرب، ويده تعبث بلحيته الكثيفة، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة هي علامة الرضا والارتياح.

ثم دعا روجيه إلى الجلوس وقال:

- يسرني أيها الفتى أن أجيب مليكك إلى رغبته، وأن يكون حامل رسالته إليَّ بطلاً من أبطاله الشجعان، وأن أصافح هذا البطل مصافحة الجندي للجندي! سأكون عند حسن الظن بي، ولن أرفض لريكاردوس طلباً. وإذا كانت الأرض قد جادت مرة واحدة بقلب الأسد وصلاح الدين، فإنها لن تجود بهما ولن تجود بمثليهما مرة ثانية!

وأمر السلطان برد الفتاة إلى أخيها. ومد يده إلى روجيه فأكب الشاب عليها يقبلها وقد تساقطت دموع الفرح من عينيه.

وكتب صلاح الدين الأيوبي إلى ريكاردوس قلب الأسد هذا الرد على كتابه:

«أيها المولى!

«صافحت الجندي الباسل الذي بعثت به رسولاً إليَّ. فليحمل إليك المصافحة ممن عرف قدرك في الميادين. لن أحتفظ بالأخ أسيراً مع أخته لأننا لا نستبقي في بيوتنا إلا أسلاب المعارك. لقد أعدنا للأخ أخته. وإذا ما نزل صلاح الدين على قول عمر بن الخطاب، فإنما فعل ذلك لكي ينزل ريكاردوس على قول عيسى: «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!».

«فرد أيها المولى الأرض التي اغتصبتها منهم إلى أصحابها».

الملكة صفية

في حي من أحياء القاهرة القديمة، كان يعرف من قبل بالداودية، جامع أثري يدعى جامع «الملكة صفية» يرجع تاريخه إلى القرن السادس عشر للميلاد، ويُعد منبره المرمري من إبداع المنابر في مساجد القاهرة.

ولهذا الجامع قصة.

وللمرأة التي أطلقت عليه اسمها قصة.

وكثيرون هم الذين يجهلون القصتين بلا شك.

فمن هي الملكة صفية، أو السلطانة التي عرف الجامع باسمها، وحاولت بذلك أن تخدع الأجيال الآتية بعدها، وتحملها على الاعتقاد بأنها شيدت ذلك المسجد، وهي لم تشيده قط بل ألصقت به اسمها زوراً وعدواناً؟

هي امرأة من نساء البندقية اختلفت فيها آراء المؤرخين، فمن قائل إن «مجلس العشرة» في تلك الجمهورية الإيطالية أرسلها هدية إلى السلطان مراد الثالث العثماني فأحبها وتزوجها، ومن قائل إنها من أسرة «بافو» Beffo الشريفة، كان أبوها حاكماً لجزيرة كورفو، فوقعت ذات يوم في قبضة القرصان الأتراك وهي ذاهبة في مركب صغير من البندقية إلى جزيرة أبيها، فباعها أولئك القرصان في سوق الرقيق، وكانت من نصيب السلطان فأدخلها حريمه وأنزلها فيه منزلة رفيعة.

والرأي الثاني هو المرجح؛ لأنه لم يكن من عادة البنادقة أن يهدوا نساءهم إلى الناس.

وسواء أكانت المرأة حرة نبيلة خطفها القرصان أم من أصل وضيع أهداها سادتها إلى السلطان، فإن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن تلك الغادة الحسناء، التي لعبت في تركيا دوراً خطيراً، كانت من بنات البندقية ومن أبرع نساء عصرها جمالاً وأبدعهن

ذكاء وأمهرهن في الدس والمكر والخداع.

كان السلطان سليمان القانوني العظيم يردد دائماً القول الحكيم: «إذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء!». لكنه لم يتعظ بهذه الكلمات البليغة ولم يعمل بها فكان في حياته ألعوبة بيد زوجته روكسلانة الشهيرة.

وردد هذه الكلمات من بعده حفيده مراد الثالث ابن السلطان سليم الثاني، ثم وقع في الخطأ الذي وقع فيه جده، بل تمادى في ذلك الخطأ أكثر منه فاستسلم للنساء استسلام من ضرب العمى على بصره وبصيرته، فكان أيضاً في حياته ألعوبة بأيدي زوجاته وحظاياه العديدات، وعلى الخصوص تلك التي كان يحبها أكثر من غيرها، والتي عرفت في التاريخ باسم الملكة صفية أو السلطانة صفية والتي جاءته من البندقية!

كان للنساء شأن عظيم في قصور السلاطين منذ عهد سليمان القانوني وابنه سليم الثاني. وعندما جلس مراد الثالث على عرش آل عثمان وجد نفسه تحت رحمة أمه اليهودية «نوربنو» وأخته الجميلة «أسما سلطان» زوجة أحد قواد المملكة العظام.

واشتد نفوذ المرأتين في عهد السلطان سليم الثاني؛ لأن الرجل كان يقضي أيامه بلياليها بعيداً عن إدارة شؤون الرعية، تاركاً الحبل على الغارب لزوجته نوربنو وابنته اسما. وقد عرف ذلك السلطان في التاريخ باسم «سليم السكير».

ولم يستطع ابنه مراد عندما خلفه على العرش في سنة ٩٨٢ هجرية الموافقة سنة ١٥٧٤ للميلاد أن يتخلص سريعاً من نفوذ أمه وأخته.

ثم قذفت إليه الأقدار بتلك الفتاة الغربية الحسناء، ابنة البندقية الساحرة، ذات العينين السوداوين والجسم الغض الناصع البياض، فهام بها مراد هياماً شديداً يقرب من الجنون، وصارت أعز أمنية لديه أن يجيب لتلك المرأة رغباتها. وعرفت الحسناء كيف تستغل ذلك الحب الذي أضرمت نيرانه في قلب السلطان، فجعلت تدس الدسائس في الخفاء لخدمة وطنها البندقية، والانتقام من أعدائها ومزاحميها لدى

السلطان الخاضع لسلطانها!

لقد دون مراد في سجل التاريخ أعمالاً شريفة بجانب أعمال مخزية. وبلغ في حياته ذروة المجد كما أنه انحدر إلى أحط دركات النذالة. وإذا كان مديناً بمجده وأعماله الشريفة لنفسه العالية وذكائه النادر ومداركه الواسعة، فإن تلك المرأة الشيطانية، التي سلمها نفسه وانقاد لها انقياداً أعمى كانت مبعث نذالته ومصدر أعماله المخزية.

***

كان مراد الثالث مزواجاً فبلغ عدد زوجاته الأربعين[١]. وكان يميل إلى النساء فبلغ عدد السراري والجواري في قصره خمسمائة أو أكثر. وقد رزق مائة وثلاثة من البنين والبنات أثبت أسماء عشرين منهم – وكانوا أحبهم إليه – في سجل الأمراء أبناء السلاطين.

ذلك هو الحرم العامر العرمرم الذي دخلته «صفية» عندما وصلت إلى قصر السلطان قادمة من البندقية، وذلك هو الجيش العظيم الذي لا يحصى له عدد إذا أضفت إليه الخصيان والخدم والعبيد، والذي تمكنت تلك المرأة الجهنمية من التسلط عليه والوصول إلى أرفع المراتب فيه.

لم تنظر أم السلطان «نوربنو» وأخته إلى القادمة الجديدة وحظوتها عند مراد بعين الرضا والارتياح والقبول، وخشيت المرأتان مزاحمة تلك الغربية الساحرة فجعلتا تكيدان لها في الخفاء لتشويه سمعتها وحمل السلطان على هجرها، وكان العاشق الولهان كان يهمل صفية أياماً ثم يعود إليها ونيران الغرام تتأجج في صدره من جديد، وسعيرها يأكل أحشاءه، فيرمي بنفسه بين ذراعيها، ولا تهدأ ثورة هيامه إلا في أحضانها، ولا يرتوي ظمأ حواسه إلا بارتشاف رضابها!

دفعت إليه أمه أجمل الغربيات، وقادت إليه أخته أجمل الشرقيات، فكان ينظر إليهن نظرة عطف لا تدوم أكثر من يوم وليلة، ثم يعود إلى تلك التي فتكت به سهام أحلامها، وينسى بقربها ما عداها من النساء.

١) أي كان يتزوج ويطلق.

وخرج مرة إلى الحرب ثم عاد إلى عاصمة ملكه، فإذا به يجد في القصر الحسناء «رضية» التي تنبأت له بالمستقبل الباهر الذي ينتظره، لما كان في العاشرة من العمر، فقضى معها أسبوعاً تذكر في نهايته حبيبته «صفية» فترك قارئة الغيب وعاد إلى ابنة البندقية.

وخرج مرة أخرى إلى الحرب ثم عاد إلى عاصمة ملكه، فإذا به يجد في القصر فتاة هنغارية كالبدر في تمامه، فقضى معها أسبوعاً تذكر في نهايته حبيبته صفية فترك الهنغارية وعاد إلى البندقية.

وفطنت صفية ذات يوم إلى أن إحدى زوجات السلطان اليونانيات قد نالت حظوة في عينيه، فرأت فيها غريمة خطرة، وأعلنت عليها حرباً لم تتورع في اختيار أسلحتها وأساليبها. فتمكنت في النهاية من حمل السلطان على قتلها بواسطة خصيانه وإلقاء جثتها في البوسفور طعاماً للأسماك.

وتحالفت عليها من أجل ذلك نساء القصر اليونانيات، وانضمت إليهن بعض التركيات الناقمات على صفية، لكن السلطان مراد الثالث أصغى إلى رغبة زوجته المحبوبة وألحق أولئك النسوة بتلك اليونانية، الواحدة بعد الأخرى، وخلا الميدان من الغريمات المزاحمات لحسناء البندقية.

وذهبت المرأة إلى أبعد من ذلك في انتقامها، فأرادت أن يمتد ذلك الانتقام إلى عالم الأموات ويتناول ما بقي في القسطنطينية من آثار لليونانيين. فجعلت السلطان يأمر بنبش القبور التي كانت تضم رفات ملوك الروم في تلك المدينة العظيمة. ففتحت القبور وألقيت عظام أولئك الملوك في الطرق والأزقة تنهشها الكلاب ويتقاذفها الأطفال!

وأدركت نوربنو أم السلطان أن نفوذ هذه المرأة لا يحارب ولا يقاوم.فأذعنت لحكم القدر القاسي وتقربت من زوجة ابنها وماتت بين يدي صفية راضية عليها، معجبة بها، بعد أن أوصتها خيراً بقهرمانة القصر «جانفيدا» ونصحتها بأن تعتمد

عليها في إدارة شؤون الحرم.

ومنذ ذلك الوقت جعلت صفية تتدخل في الأمور السياسية وتصدر أوامرها إلى الوزراء والقواد والحكام، معتمدة في كل ما يتعلق بالقصر والحرم على صديقتها الجديدة جانفيدا.

***

أرادت الملكة صفية ذات يوم أن تحصل على مبلغ من المال دون أن يعلم به السلطان زوجها، فطلبته من وزيره الأكبر، فرفض أن يجيبها إلى رغبتها بحجة أن الخزينة خاوية خالية وأنها على أبواب الإفلاس.

حنقت عليه المرأة وجعلت تفكر في وسيلة للانتقام منه دون أن يشعر السلطان بذلك أو يداخله ريب من ناحيتها. فوجدت في كنانتها بين السهام الكثيرة سهماً صائباً.

دخلت على السلطان في حجرته وقد ألبست وجهها قناع الخوف والجزع وقالت بصوت مضطرب:

- علمت من أحد الخصيان الجواسيس أيها الحبيب، أن بعض كبار الرجال في هذا القصر يدبرون مكيدة لإثارة الجيش عليك، لأنك لم تنقد الضباط والجنود ما استحق لهم من رواتبهم منذ شهور.

فقطب السلطان جبينه وقال:

- نعم.. لم أدفع لأن الخزينة لا تحوي المال اللازم. ولا أخفي عنك أنني كثير الخوف من المستقبل..

- لكنني أدلك على وسيلة للخلاص من هذا المأزق: إن النقود المتداولة الآن في أنحاء السلطنة جميعها من الفضة والنحاس. فأضف إليها أيضاً ربع قيمتها من النحاس.

- إنها لفكرة حسنة.

- وإذا تذمر الشعب أو تحرك الجيش، فلا تنس أن تلقي التبعة كلها على وزيرك الأكبر اتقاء للخطر!

وهذا ما حدث...

فقد تذمر الشعب وتحرك الجيش...

وعندما هجم الجنود بقيادة الإنكشارية على القصر السلطاني طالبين أن تدفع رواتبهم كاملة، وأن تعاد قيمة النقود إلى ما كانت عليه، أوفد السلطان من لدنه رسولاً يقول لزعمائهم:

- إن السلطان غاضب على وزيره الأكبر صاحب هذه الفكرة ومنفذ هذا المشروع. ومولانا يعدكم بأنه سيعيد إلى النقود قيمتها السابقة ويدفع لكم رواتبكم كاملة غير ناقصة. أما اليوم فإنه يدفع إليكم رأس وزيره المسؤول.

وقاد جنود الحرس الوزير المسكين وسلموه للإنكشارية، فذبحوه أمام مدخل القصر مهللين صائحين:

- نصر الله السلطان!

***

في سنة ١٥٨٤ للميلاد الموافقة سنة ٩٢٢ هجرية مات إيفان الرابع قيصر روسيا الملقب بالهائل، وكانت السلطنة العثمانية مرتبطة في عهده مع روسيا بمعاهدات عديدة وقع عليها سليم الثاني السكير. فحملت الملكة صفية زوجها على نقض تلك المعاهدات، لا حباً به أو حرصاً على مصلحة أمته، بل انتقاماً من اثنتين من زوجات السلطان علمت صفية أنهما من بنات الصقالبة، وأنهما تكيدان لها بين النساء. وعندما عادت القبائل الروسية إلى شن الغارات على حدود السلطنة العثمانية، أمر مراد الثالث بذبح الروس المقيمين في ولاياته. فتناول السيف الزوجتين الروسيتين فيمن تناولهم من الأبرياء!

***

وكانت إحدى نساء القصر – واسمها وردة – من اللواتي يبعثن الحسد إلى صدر صفية التي كانت ترمي إلى الاستئثار بعواطف السلطان وشعوره وماله دون سواها من النساء. فسعت إلى التخلص من «وردة» كما تخلصت من غيرها.

وحدث أن هاجم الموارنة اللبنانيون مدينة طرابلس وخربوها وأحرقوا منازلها وذبحوا حاميتها. فاغتنمت صفية الفرصة السانحة وقالت للسلطان:

– إن وردة من بنات ذلك الجبل المتمرد. وهي تنتمي إلى أولئك الموارنة العصاة الثائرين. فقد جاء بها إليك النخاسون بعد أن اختطفوها من بلادها. وهي منذ ذلك الوقت لم تغفر لك قبولها في قصرك. فهي خائنة ودساسة جاحدة. اقتلها واسترح وأرح الناس منها!

فقتلها السلطان وقتل معها البنات الثلاث اللواتي رزقهن منها. وسير جيشاً لمحاربة اللبنانيين فعاد الجيش على أعقابه خاسراً.

***

وفي سنة ١٥٩٦ مات مراد الثالث في الخمسين من العمر وتساءل الناس: «من يتبوأ العرش من بعده؟»

أما السلطانة صفية الزوجة المحبوبة فإنها لم تتساءل ولم تتردد ولم تفكر طويلاً.

كانت قد رزقت من السلطان ولداً وعقدت النية على جعله سلطاناً بعد أبيه.

واسم الولد محمد.

لكن أبناء السلطان كانوا كثيرين، وكان كل منهم يطمع في السلطنة ويتطلع إلى العرش.

لابد إذن من القضاء على مطامعهم. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقضاء على حياتهم!

وفي ذات يوم، قبل طلوع الشمس، انتشر في العاصمة خبر صعق له الناس وترددوا

في تصديقه. لكنهم ما لبثوا أن وثقوا منه وثوقهم من أشعة الشمس الساطعة: «أصبح محمد بن مراد صاحب العرش الوحيد باسم محمد الثالث. أما إخوته فقد ماتوا جميعاً مذبوحين ذبح الأنعام!».

ولم يأمر محمد الثالث بقتل إخوته إلا نزولاً على إرادة أمه صفية وعملاً بنصيحتها.

وظلت تلك المرأة الداهية مسيطرة على ابنها كما كانت مسيطرة على زوجها. فأصبح محمد الثالث ألعوبة في يدها كما كان أبوه مراد الثالث من قبل.

ومات الابن في سنة ١٦٠٣ للميلاد الموافقة سنة ١٠١٢ هجرية. فأرادت صفية بالرغم من تقدمها في السن أن تصنع بحفيدها أحمد ما صنعته بأبيه وجده من قبل. لكن السلطان الشاب، الذي لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من العمر، رفض الانقياد لأهواء جدته. فوضع تحت تصرفها قصراً جميلاً على ضفاف البوسفور وأرغمها على الإقامة فيه بقية أيام حياتها.

وهناك أوفدت السلطانة صفية رسولاً إلى مصر فنقش اسمها على لوحة من الرخام، في ذلك المسجد الذي ادعت تلك المرأة أنها شيدته في القاهرة، والذي لا يزال يحمل اسمها إلى الآن.

وماتت صفية ابنة البندقية وحبيبة مراد الثالث، منسية مهملة دون أن يدون في السجلات تاريخ موتها!

الراهبة هونوريا

اسمها هونوريا، وهي ابنة إمبراطور وأخت إمبراطور، ولدت في مدينة «رافنا» سنة ٤١٧، وكانت مع أخيها فالانتينيانوس ثمرة زواج الإمبراطور كونستانس الثالث والإمبراطورة بلاسيديا.

طالعها الحب وهي في ميعة الصبا، وعلق قلبها بضابط كبير من ضباط القصر، ولكن أمها المتكبرة أبت أن تسمح بزواج العاشقين.

أيقال إن الأميرة هونوريا ابنة كونستانس وبلاسيديا التي يجري في عروقها دم ملكي، تزوجت ضابطاً بسيطاً لا أمل له في الجلوس على عرش؟

إن الإمبراطورية الرومانية الغربية واسعة مترامية الأطراف. فما على الفتاة إلا أن تبحث عن زوج لها بين الأمراء والأقيال الذين يخضعون للعرش ويؤدون لصاحبه الجزية. أما أن تصبح زوجة لرجل خامل فهذا لن يكون.

ولكن الفتاة كانت تحب. وكان الحب في نظرها أعظم من المجد شأناً، كما كان داعية أحرى بالطاعة من داعي التاج والعرش.

أيريدون أن تبحث عن زوج بين الأمراء وأرباب التيجان!

حسناً!.

***

وعزمت الأميرة هونوريا على الإقدام على عمل قد يجد فيه أهلها عاراً وشناراً، ولكنه يعد في نظرها انتقاماً من أولئك الذين حالوا بينها وبين من تحب.

كان أتيلا ملك الخون يهاجم أطراف الإمبراطورية الغربية، وكانت هناك شعوب ترتجف خوفاً من ذكر اسم ذلك الفاتح العظيم، وترفع أكف الضراعة إلى الله طالبة منه أن يدفع عنها الشر والأذى، وأن ينقذ أوروبا من «البربرية المتدفقة الطاغية عليها

من الشرق والشمال.

يريدون من هونوريا أن تبحث عن زوج بين الملوك؟

ستعرض نفسها إذن على الملك أتيلا!

وهذا ما فعلته الأميرة اليائسة بعد أن أصيبت في حبها.

كتبت إلى ملك «الخون» تقول إنها ترغب في أن تهبه نفسها. وأوفدت إليه رسولاً يحمل إليه رغبتها وخاتماً من الذهب هدية «الخطيبة» إلى «خطيبها».

وعلمت أمها الإمبراطورة بلاسيديا بما فعلت الفتاة، فقررت أن تعزلها عن العالم مدة من الزمن حتى تحول دون تنفيذ تلك الخطة الجهنمية وذلك الزواج المعيب!

وكان بلاسيديا في ذلك الوقت تشرف على الإمبراطورية وتدير دفة سياستها، لأن ابنها الإمبراطور فالانتينيانوس كان شاباً يافعاً، لا يحسن الإدارة ولا يميل إلى تحمل تبعات العرش.

وفي ليلة حالكة الظلام خرجت من مدينة رافنا مركبة تقل الإمبراطورة وابنتها وتحف بها كوكبة من الفرسان المسلحين.

سارت المركبة ساعات عديدة قطعت في خلالها السهول والنجاد، حتى وصلت إلى دير قائم على ربوة مرتفعة.

ونزلت من المركبة امرأة ثائرة الأعصاب على وجهها أمارات الغضب، ومعها فتاة هادئة على ثغرها ابتسامة ساحرة.

ومكثت هونوريا منذ ذلك اليوم بين الراهبات المتبتلات في الدير المنعزل، بعيدة عن العاصمة وعن العالم بخيره وشره.

وصل الرسول إلى الملك أتيلا وأفضى إليه برسالته وقدم الخاتم الذهبي قال أتيلا:

- لقد سمعت بالأميرة هونوريا. وقيل لي إنها بارعة الجمال. فاحمل إليها الرد من ملك الخون أيها الرسول. قل لها: «إن الملك أتيلا «غضب الله في أرضه» وسيد

الممالك وقاهر الجيوش، يأخذ المرأة التي يريدها ويختار الفتاة التي تروقه، فهو ليس في حاجة إلى أن تعرض عليه الأميرات نفوسهن. سوف نقتحم أسوار رافنا على رأس جيشنا وندك عرش الإمبراطور الروماني. وإذا ما وجدنا في الأميرة هونوريا المرأة التي تروقنا، فإننا نشير إليها بأن تلحق بنا إلى خدرنا، اذهب!».

***

دخلت راهبة على الفتاة في حجرتها، وقالت لها: إن رسولاً من رافنا وصل إلى الدير وهو يرغب في الاختلاء بها.

فمسحت الأميرة دموعها وخرجت إلى قاعة الانتظار حيث كان الرسول يأخذ نصيبه من الراحة:

- متى عدت يا لوسيوس؟

- منذ ثلاثة أيام يا مولاتي.

وأفضى إليها بالرد الذي فاه به ملك الخون.

- وماذا يحدث في رافنا؟

- القوم يستعدون للحرب يا مولاتي وأمك لا تزال على عنادها.

- وهو.. كيف حاله؟

- من؟

- هو؟.. وهل في رافنا من يهمني غيره؟

- إن الرجل الذي أحبك وأحببته أيتها الأميرة لم يعد في عالم الأحياء!

- قتلوه؟

- لست أدري إذا كان قد سقط تحت خناجر القتلة أو انتحر. ولكن الذي أعلمه أنه انتقل إلى العالم الآخر!

- قتلوه! نعم، أنا واثقة من ذلك، قتلوه.. قتلوه..

جعلت الفتاة تنتحب، وجعل الجندي الرسول يهدئ روعها ويحاول تعزيتها. ولكن الأميرة هونوريا نهضت فجأة وقد لمع في عينيها بريق مخيف، وقالت:

- عد إلى رافنا وقل لأمي: إنها بعملها هذا قد قتلت كل عاطفة في قلبي، وإنني لن أخرج من هذا الدير بعد الآن، وسِر من هناك إلى الملك أتيلا مرة أخرى، وقل له؛ إن الفتاة التي تعرض نفسها عليك تحمل في وطابها نصف الإمبراطورية الرومانية بائنة لزواجها، وإنك لو أرسلت إلى الإمبراطور فالانتينيانوس وأمه بلاسيديا تطلب الفتاة زوجة لك، فإن خوفها منك ومن جيوشك الجرارة سوف يحملها على القبول وعلى التنازل لك عن نصف الإمبراطورية.

***

عاد الرسول ومعه وفد من قواد الخون، يتقدم الجميع أحد المقربين إلى أتيلا، حاملاً إلى الإمبراطور فالتنيانوس كتاباً من الملك يطلب فيه الأميرة هونوريا زوجة له، ويطلب معها نصف الإمبراطورية الرومانية.

ورد الإمبراطور على الملك برفض طلبه، وأصدرت بلاسيديا أم الإمبراطور أوامرها إلى القواد ورجال الحرب بالاستعداد للقتال.

ومرت سنوات قضتها الأميرة هونوريا في دير الرهبان، وقضاها أخوها الإمبراطور وأمه بلاسيديا في حروب يعدان عدتها ويخوضان غمارها ويصلحان ما تفسده من شؤون الدولة.

على أن أتيلا ذاق مرارة الفشل في السهول «الكتالونية» بفرنسا وعاد أدراجه إلى الوراء، وظنت أوروبا أن الرجل الذي كان يسمى نفسه «غضب الله في أرضه» قد رحل عنها دون أمل في الرجوع.

واعتقد الإمبراطور فالانتينيانوس أن خطر الزواج الذي كان يهدد أخته هونوريا قد زال أيضاً ما دام أتيلا قد جلا عن أطراف الإمبراطورية الرومانية.

ومرت فترة من الزمن لم يعلم أحد فيها ماذا يصنع ملك الخون في عزلته.

ثم رجع الرسل من جميع الأنحاء إلى رافنا حاملين أخباراً أعادت إلى النفوس القلق والاضطراب.

أتيلا يهاجم حدود الإمبراطورية من جديد!

وأصدر الإمبراطور فالانتينيانوس أوامره إلى رجال جيشه وحكام مقاطعاته بأن يستعدوا للقتال لصد الغزاة المهاجين.

وعزم على أن يزوج أخته هونوريا إلى رجل آخر قبل أن يصل الخون إذا ما قدر لهم النصر، وبذا يضع ملكهم أمام الأمر الواقع.

وأخرجت هونوريا من الدير.

وأقيمت في القصر الإمبراطوري حفلة رائعة دعي إليها عظماء الإمبراطورية، وعزفت فيها الفرق الموسيقية، ودارت حلقات الرقص وارتفعت أنغام الأناشيد، وأعلن الإمبراطور أن أخته هونوريا ستصبح في تلك الليلة زوجة حليلة لصديقه القائد «فلافيوس» الذي سيجلس على أحد العروش التابعة للعرش الإمبراطوري.

وكانت الأميرة في تلك اللحظة راكعة في مخدعها، تدعو الله أن يرفع عنها الكارثة وينتقم لها من الذين قتلوا حبيبها وطعنوا حبها في الصميم.

طلبت من الله أن يجعل النصر حليف «الخون» أعداء بلادها، وأن يأخذ بيد ملكهم لكي يهدم عرش أخيها الإمبراطور ويقيم على أنقاضه عرشاً جديداً، تجلس هي عليه وتثأر لنفسها من الذين أذاقوها الألم والعذاب.

ولكن الله لم يستجب لدعائها.

وما انتهت الحفلة التي أقامها الإمبراطور لزفاف أخته الجميلة، حتى وصل الرسل من تخوم الإمبراطورية حاملين خبراً رقصت له القلوب فرحاً وطرباً:

مات الملك أتيلا!

مات ملك الهُون مقتولاً بيد زوجته في ليلة عرسه!

زفت إليه في تلك الليلة ابنة أحد الملوك الجرمانيين، فأغمدت في صدره خنجرها بين قبلتين!

قابل الإمبراطور فالانتينيانوس هذا النبأ بصرخة فرح دوت في أرجاء القصر ورددها المدعوون رجالاً ونساء.

وقابلتها الأميرة هونوريا بصيحة يأس قطعت نياط قلبها، فحملتها وصيفاتها إلى مخدعها مغشيًا عليها.

***

ولم تطق الأميرة العيش مع الزوج الجديد الذي زفوها إليه دون رغبتها فيه، فانتهى ذلك القران بفراق لا لقاء بعده.

وعادت الأميرة هونوريا إلى الدير لقضاء حياتها بين الراهبات المتعبدات.

وطلبت إليهن ألا يذكرن اسمها في حال من الأحوال، وألا يشار إليها إلا بكلمة واحدة: «الراهبة!».

وقد عاشت هونوريا في الدير بقية حياتها، وأحاطت نفسها بهالة من الغموض، حتى إن التاريخ لا يذكر في أية سنة من السنين قضت نحبها، وانتقلت إلى جوار ربها.

مات الإمبراطور فالانتينيانوس في سنة ٤٥٥.

أما هونوريا - الراهبة - فلا يعلم أحد إذا كانت قد ماتت قبل أخيها أو بعده.

وكل ما عرفه الناس فيها بعد أنها ترقد في الدير رقادها الأخير، وأن لوحة من المرمر وضعت على قبرها وحفرت عليها هذه الكلمة: «الراهبة».

بايان المجنون

في سنة ٥٦٥ للميلاد نودي بالأمير «بايان» ملكاً على قبائل «الخون» ورفعه رجال الجيش على التروس وأقسموا له يمين الطاعة، فوعدهم الملك الجديد على أن يسير دائماً على الخطة التي سار عليها من قبل ملك الخون العظيم «أتيلا»، الذي دوخ الشرق والغرب، واجتاح بجحافله مدن أوروبا وسهولها وجبالها، وبسط سلطانه على الأقطار والأمصار، من الأصقاع الآسيوية البعيدة إلى سواحل البحار الأوروبية.

وأراد بايان أن ينسج على منوال ذلك الفاتح العظيم والفارس المغوار، وأن يثبت للأمم شرقاً وغرباً أن قبائل الخون، سواء أكانت مقيمة في القصور والمنازل الحجرية، أم في المضارب المنتشرة في السهول، فإنها لا تزال على ما كانت عليه من قبل، تحسن الضرب والطعن وتجيد الكر والفر، وتجمع بين الفروسية والشجاعة والبذخ والترف.

وأوفد بايان رسله إلى زعماء القبائل يطلب بناتهم زوجات له، وإلى تجار الرقيق يطلب أجمل ما عندهم من الغيد الحسان اللواتي يسرقهن اللصوص والقرصان من البلدان القصية إلى أسواق الرقيق.

وما مرت شهور على تسلم بايان عرش الملك، حتى غصت قاعات قصره بالزوجات والسراري، فبلغ عددهن ثلثمائة امرأة وعذراء.

أما أولئك الخون الذين نادوا ببايان ملكاً عليهم، فإنهم كانوا يعتقدون أن عبد أتيلا عائد آجلاً أو عاجلاً، وأن ملكهم الجديد بايان هو العاهل الذي كتب له في صفحة القدر أن يعيد ذلك العهد الحافل بالحروب والانتصارات والغزوات.

جاؤوا من قلب آسيا، وتدفقت جموعهم على أوروبا، فاجتاحوا الممالك وخربوا الديار وهتكوا الأعراض وأغرقوا المدن والحقول في بحار من الدماء.

وشاءت الأقدار التي قذفت بهم من الشرق إلى الغرب أن تحول دون زحفهم

نحو الجنوب، فعرفوا مرارة الانكسار للمرة الأولى في السهول الكتالونية سنة ٤٥١ للميلاد، فعادوا أدراجهم إلى قلب أوروبا، حيث أسسوا دولة قوية ترتكز قوائمها على الأسنة والصوارم.

كان الصينيون يخشون بطشهم، ويسمونهم «هيونغ نو» وطالما وقعت بين الفريقين معرك دموية، طربت لها الوحوش في غاباتها، والجوارح في فضائها.

وكان اليونانيون يسمونهم «خونوي»، وعرفوا عند شعوب أخرى باسم «أياهونا»، واصطلح الأوروبيون الذين غزا أولئك الفرسان الأشاوس ديارهم على تسميتهم «هون» أو «خون»، وهذا الاسم الأخير هو الذي نطلقه عليهم في حديثنا عن ملكهم بايان المجنون.

***

عندما اعتلى هذا الملك عرش أتيلا، في سنة ٥٦٥ للميلاد، كان الإمبراطور يوستانوس جالساً على عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية في مدينة بيزنطة، القائمة على ضفاف البوسفور، كأنها حارس يرقب الشرق والغرب في آن واحد، ويستعد للانضمام دائماً إلى الغالب والانقلاب على المغلوب!

جيء إلى الملك بايان ذات يوم بغادة هيفاء، جديرة بأن يزدان بها حرمه الملكي، وقيل له إنها ابنة قائد من قواد الروم، وفرت من كنف أبيها؛ لأنه رام أن يرغمها على الزواج بيوستانوس الإمبراطور، فآثرت الهرب بعيداً عن وطنها على الزواج برجل تمقته. وقيل لملك الخون: إن الفتاة الغربية ترغب في المثول بين يديه وترجو منه ضمها إلى نسائه الكثيرات.

وما وقع نظر بايان على تلك التحفة البشرية النادرة، وذلك الجسم الأبيض الناعم، حتى أخذ بحسنها الفتان، وسحر بنظراتها الذابلة، وشعر برعشة شديدة تسري في عروقه، وبمراجل الحب، أو ما تخيله حبًّا، تغلي فيه وتدفعه اندفاع الصائم الجائع نحو شهي الطعام.

فتح بايان للفتاة أبواب الحرم، وأمر أن تعد لها أكبر حجرة في القصر. وأعلن بعد ذلك اليوم بأسبوع، أن «مارسيا» الرومانية أحب نسائه إليه، وأن على ساكنات الحرم أن يطعنها طاعة عمياء، وعلى رجال الحرس أن يحيوها برفع السيوف والرماح.

وأغدق بايان العطايا على الساحر «أوغال» الذي جاء إليه بتلك الحسناء. فأعطاه قصراً يقيم فيه وأرضاً ينعم بريعها، وسمح له إجابة لطلبه بأن يكون الرجل الوحيد الذي يحق له أن يدخل على مارسيا في خدرها بلا استئذان، لكي يسطو عليها بقوة سحره، ويسهر على إبقائها مخلصة للملك وفية له في حبها.

وجعل الساحر أوغال يتمتع منذ ذلك الوقت بالامتياز الذي أحرزه دون سواه من رجال الجيش والحاشية.

وكان الملك لا يجد ما يوجب القلق في دخول الساحر على زوجته المختارة، وبقائه ساعات في خدرها، ما دام الساحر في عرف الناس أجمعين رجلاً لا تحدثه نفسه بالاعتداء على أغراض الغير، وما دام أوغال يستخدم قوة السحر الكامنة فيه لخدمة الملك ومصلحته.

***

مرت سنوات كان بايان في أثنائها أسعد الرجال وأسعد الملوك، يغزو بجيشه الكثير العَدد والعُدد أطراف الممالك المجاورة، ويعود إلى حصونه وقلاعه بالغنائم والأسرى والسبايا، فيوزع جزءاً منها على الجنود ورؤسائهم، ويحتفظ لنفسه بأثمن التحف وأجمل النساء.

ولكنه لم يفضِّل قط امرأة على مارسيا المحبوبة، التي ظلت في حرم الملك أبرع النساء جمالاً، وأعظمهن حظوة لدى سيد القصر، وأكثرهن دلالاً عليه.

وكان بايان قد استولى على أقاليم تابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، ورفع عليها أعلام الخون وضمها إلى أملاكه الواسعة، ولم يضمن أباطرة بيزنطة لأنفسهم الراحة والأمان، إلا بتعهدهم لذلك الملك الجبار والغازي المنتصر، بدفع جزية بلغت

في وقت من الأوقات ثمانين ألف قطعة من الذهب الخالص في كل عام.

وكان الساحر أوغال لا يزال في نظر الملك أقرب الرعايا إليه، وأشدهم غيرة على مصالحه وإخلاصاً في خدمته.

ولكن حدث ذات يوم ما بدل حالاً بحال، ومزق عن عين الملك بايان الحجاب الكثيف الذي كان يخفي عنه حقيقة الساحر المحبوب والمرأة المعبودة.

دخل الملك في ذلك اليوم على زوجته في حجرتها، فإذا به يراها مع أوغال في حالة لم تترك عنده شكًّا في أن المرأة تحب الرجل وأن الرجل عشيقها، وأن الاثنين يخدعانه من زمن بعيد، وأنه أفرغ حبه في زوجة فاجرة، ووضع ثقته في ساحر فاسق منافق!

صعق الملك عندما وقع نظره على ذلك المشهد القذر، فوقف واجماً لا يقوى على الحراك، وقد عقد لسانه عن النطق وانتابه دوار وامتدت أمامه غشاوة بسطت رواقها على كل شيء، وخيل إليه أنه على وشك السقوط على الأرض فاقد الرشد.

ولكنه تجلد وتمالك نفسه وصاح بالخائنين صيحة دوت كزئير الأسد في الحجرة الرحبة، وتردد صداها في أرجاء القصر، ووثب الملك بايان إلى الأمام يريد الاقتناص من الرجل الذي خان الأمانة، ومن المرأة التي لعبت بقلبه وعبثت بحبه.

لكن الساحر أوغال كان قد اغتنم فرصة وجوم الملك وذهوله هنيهة من الزمن، فاختفى من الحجرة وخرج من القصر دون أن يعترضه معترض، وكيف يقف في سبيله خادم أو حارس أو جندي، وهو الرجل الوحيد الذي سمح له الملك بدخول الحرم بلا استئذان؟

وجد بايان نفسه وحيداً أمام تلك المرأة التي أحبها فقابلت حبه بالخيانة، فخطا نحوها خطوتين، وعيناه تقدحان شرراً، والزبد يتساقط من فمه المرتجف غيظاً وغيرة، وقد استل سيفه وهَم بالقضاء على الفاجرة.

لكن المرأة استغاثت في تلك اللحظة بطبيعتها فلبت الطبيعة النداء وانهمرت الدموع غزيرة من عيني مارسيا الساحرتين، فانطرحت على قدمي زوجها الهائج، باكية صارخة بصوت متقطع تتخلله الزفرات: «اقتله، اقتله» أيها الحبيب الغالي، اقتله

فقد لطخ عرضك بعاره، واستخدم سحره لإغرائي، فاستسلمت إليه بقوة لا أعرف مبعثها! لقد سحرني هذا اللعين وسلط عليَّ الأرواح الشريرة، ثم افترسني وتركني الآن أندب سوء طالعي! اقتله واقتلني معه، فقد خانك متعمداً وخنتك مرغمة أيها الحبيب الغالي!»

وقع السيف من يد بايان، وسقط الملك على الأرض مغشياً عليه...

وأثبتت مارسيا أن المرأة لا تعدم حيلة للخروج في ساعة الخطر من أشد المآزق حرجاً!

وكان ذلك في سنة ٥٨٢ للميلاد.

***

لجأ الساحر أوغال إلى الإمبراطور موريس، الذي خلف في تلك السنة الإمبراطور تيبيروس على عرش بيزنطة، فأكرم موريس وفادة اللاجئ، وجعل يستخدمه لقضاء أغراضه والتجسس على زعماء الخون وأقيالهم، والوقوف على ما كان ذلك الإمبراطور يجهله من أحوال عدوه بايان، ومدى استعداده للحرب وغير ذلك من الشؤون التي كان يهمه الاطلاع عليها.

ومرت أعوام عديدة لم يعلم فيها بايان من أمر ساحره شيئاً، إلى أن بلغه ذات يوم خبر التجاء الساحر إلى عدوه، فأوفد الرسل إلى الإمبراطور موريس يطلب إليه رفع الجزية إلى مائتي ألف قطعة من الذهب، وإعادة أوغال إلى بلاد الخون لمعاقبته على ما اقترف.

رفض موريس إجابة الملك بايان إلى طلبه وأمر جنوده بأن يضربوا الرسل بالسياط ويطردوهم خارج حدود المملكة، فرجع الرسل إلى مليكهم في حالة يرثى لها وقصوا عليه ما حدث، فثار ثائر بايان وأصدر أمره بتعبئة الجيش والاستعداد للحرب.

وبدأ القتال بين الخون والإمبراطورية الرومانية الشرقية، ودارت رحى المعارك من جديد وعم الخراب والدمار جميع الأقطار الخاضعة للملكين، وجعل كل منهما يسابق الآخر في ضروب القسوة والهمجية والسلب والنهب.

ولعب المشيب في رأسيهما وأحنت السنون ظهريهما وهما على تلك الحالة من الاسترسال في الحرب.

وعاد الملك بايان في يوم من أيام الشتاء الشديدة البرد إلى قصره للراحة، فإذا به يفاجأ بخبر قضى على آماله وألبس الدنيا في وجهه ثوب السواد!

قيل له إن زوجته مارسيا قد اختفت، وإنها أوثقت يدي خادمتها وتركتها في حجرة نومها، بعد أن عهدت إليها في أن تقص على سكان القصر في اليوم التالي أن مارسيا عائدة إلى وطنها، وأنها تحب الساحر أوغال ولا تطيق صبراً على البقاء بعيداً عنه، وأنها تترك بلاداً تمقتها وزوجاً لم تحبه قط في حياتها!

هذا هو الخبر الذي أفقد الملك بايان عقله وتركه مجنوناً من الغضب والحزن معاً.

وأبى أبناؤه العشرة أن ينزعوا عن رأسه التاج وأن يُجلسوا على العرش واحداً منهم ما دام أبوهم على قيد الحياة، وراحوا يطلبون الضرب والطعن، وراء الملك المجنون، الذي كان يهاجم صفوف الأعداء ويقتحم أسوارهم صائحاً بصوت أشبه بصوت الحيوان الجريح «مارسيا. مارسيا..!».

وظل بايان المجنون يطوف من بلد إلى بلد ومن ميدان إلى ميدان، ينثر الموت يميناً ويساراً ويطلبه في ميادين الوغى من دون أن يرضى به الموت، إلى أن اغتالته يد جندي أثيم من جنوده في إحدى المعارك التي دارت رحاها بين الخون وجيش القائد برسكوس.

ولم يترك بايان المجنون أحداً من صلبه، فإن أبناءه العشرة قتلوا مثله في الحروب والغزوات.

وعندما أراد أنصاره أن يحملوا جثته إلى قصره لدفنها في الضريح الذي كان ذلك الملك قد أعده لنفسه، لم يعثروا إلا على رأس بايان المجنون!

رجل الفازوق

في أواسط القرن الخامس عشر، كان يجلس على عرش فرنسا ملك أصبح فيما بعد مشهوراً في التاريخ باسم لويس الحادي عشر.

وكان لويس الحادي عشر من عشاق المشانق، يعاقب اللصوص والمجرمين وأعداءه السياسيين بالشنق إذا كان لا يرغب في التخلص منهم سرّاً بواسطة السم والخنجر.

فلويس الحادي عشر رجل المشنقة وقد حكم فرنسا بالمشنقة!

وفي أواسط القرن الخامس عشر أيضاً، كان يجلس على كرسي الإمارة في ملدافيا رجل أصبح فيما بعد مشهوراً في تاريخ بلاده، هو الأمير فلادو.

وكان الأمير فلادو من عشاق الخوازيق، كما كان لويس الحادي عشر من عشاق المشانق. وإذا كان ملك فرنسا قد حكم بلاده بالمشنقة، فالأمير الملدافي قد حكم بلاده بالخازوق!

كان ذلك الأمير يعلل نفسه بحلم لذيذ وهو أن يوحد بلاد رومانيا تحت لوائه، ويجعل منها قوة تقف في وجه الأتراك الغزاة الفاتحين، وتحول بينهم وبين التوغل في أوروبا.

وكان يحلم أيضاً بإقامة عرش ثابت الأركان والدعائم يجلس عليه ويتركه لأبنائه من بعده.

وكان لابد لصاحب هذا الحلم من الالتجاء إلى وسائل العنف وطرح الشفقة والرحمة والضمير جانباً، وهذا ما فعله الأمير فلادو الملدافي رجل الخازوق.

حارب الأتراك ووقع في أسرهم، ثم أفلت منهم وحاربهم من جديد وأسر كثيرين منهم. وعاد إلى وطنه باكتشاف جديد كان من قبل يجهله وهو: الخازوق!

رأى الأتراك «يخوزقون» أعداءهم، ووجد أن الخازوق يترك في النفوس أثراً عميقاً، فعشقه كما عشق لويس الحادي عشر المشنقة، وجعل الأمير الملدافي يُجلس على الخازوق كل شخص يريد التخلص منه، بينما لويس الحادي عشر يعلق في أغصان الأشجار كل من يقف حجر عثرة في سبيله.

وإذا كان القرن الخامس عشر حافلاً بالحوادث العظيمة، فإنه يجب علينا عندما نذكر تلك الحوادث أن لا ننسى مشانق لويس الحادي عشر الفرنسي وخوازيق الأمير فلادو الملدافي!

***

شيد فلادو لنفسه قصراً شاهقاً فوق أكمة تشرف على نهر الطونة على مقربة من بلدة سناجوك الصغيرة، وأقام في ذلك القصر المنيع يحيط به أعوانه من القواد وزعماء القبائل، وكان يخرج من وقت إلى آخر على رأس جيشه يطلب الحرب والنزال، ثم يعود بالأسلاب والأسرى إلى قصره، وأمامه الراية التي حاكتها أيدي النساء الملدافيات من شعورهن السوداء، وكتب عليها الاسم الذي أطلقه فلادو على نفسه: «الملك الهائل!».

وذلك الأمير الذي اتخذ الخازوق وسيلة للقضاء على أعدائه وخصومه ومنافسيه، ولقمع كل حركة يراد بها عرقلة سياسته ومعه من بسط سلطانه على الأقاليم الرومانية كلها، ذلك الأمير الغليظ الذي لم يعرف الحنان إلى صدره منفذاً، والذي لم تأخذه شفقة قط على ضعيف أو رحمة بأعزل، ذلك الأمير الذي جعل الحروب دينه وديدنه، كان يشعر أمام النساء بضعف ووهن وخفقان، وكان إذا ما اكتنفته أنظار الحسان سقط جاثياً على ركبتيه وقد استولت عليه رعشة الحمى من قمة الرأس إلى أخمص القدم!

كان رجل الخازوق يحب الجنس اللطيف ويخشاه في آن واحد!

تزوج فلادو الملدافي، ولكن الذين بحثوا في تاريخ رومانيا، واستقصوا أخباره،

ودونوا في الكتب ما وصل إلى علمهم عن رجل الخازوق، يؤكدون أن «الملك الهائل» كان يرتعد خوفاً من زوجته في الوقت الذي كانت فيه جحافل الأتراك ترتعد خوفاً منه في الميادين!

***

أرسل «الملك الهائل» في طلب الأعوان المقربين إليه فأسرعوا ملبين النداء، ووفدوا على قصر الأمير من كل حدب وصوب، وفي صبيحة يوم من أيام الصيف سنة ١٤٦٣ عقد فلادو وأولئك الأعوان مجلساً عامًّا على شرفة واسعة تتشرف على النهر الصافي، فتوسط الأمير ذلك المجلس وأحاط به الأقيال والزعماء، وقد ارتدى كل منهم أفخر الثياب وحمل عدة حربه الكاملة. وقال الأمير:

- لقد أرسلت في طلبكم أيها الأصدقاء لكي أفضي إليكن برغبة قد تكون الأخيرة، لأنني أشعر بدنو أجلي وأخشى أن يسطو عليَّ ملك الموت فأرحل عن هذا العالم قبل أن أحقق الغاية السامية القصوى التي وضعتها نصب عيني! لقد نجحت في الخطة التي رسمتها لنفسي ووحدت القبائل الرومانية تحت سلطة واحدة، وأنا مدين بذلك النجاح للخازوق! الخازوق الذي أخذته عن أعدائنا الأتراك، والذي لولاه لما قامت لنا في هذه الظروف والأحوال قائمة. الخازوق الذي نحن مدينون له بكياننا والذي أنا مدين له بهذا العرش الذي أجلس عليه! فرغبتي إليكم أيها الأصدقاء المخلصون أن تدفنوني على ضفاف هذا النهر الذي أحببته، في ظل شجرة وارفة، وأن تقيموا على قبري خازوقاً تكتب عليه هذه الكلمات: «هنا يرقد رجل الخازوق الملك الهائل فلادو الملدافي!» وبعد أن تواروني التراب وتنادوا بخَلفي أميراً عليكم، أسرعوا إلى أقبية هذا القصر المنيع واقتحموا أبوابها وأخرجوا ما تجدونه فيها إلى ضوء النهار، ثم ألقوا بذلك كله في أعماق هذا النهر اذهبوا بسلام!

***

لم يمت رجل الخازوق في تلك السنة، بل عاش مدة من الزمن واستأنف القتال بالرغم من شيخوخته، فكان يحارب الأتراك على حدود إمارته، ويحارب خصومه في داخل تلك الحدود، ويخوزق منهم كل من ينجو من السيف ويقع أسيراً في قبضته.

وظل الأقيال والزعماء يتحدثون فيما بينهم ويتهامسون، محاولين عبثاً معرفة السر الذي تضمه جدران الأقبية في قصر نساجوك.

وأخيراً، مات فلادو الملدافي فدفنه شعبه على ضفاف النهر، في ظل صفصافة وارفة وشيدوا له ضريحاً فخماً يعلوه خازوق هائل الحجم جدير بالملك الهائل فلادو الملدافي رجل الخازوق!

وأسرع الناس إلى أقبية القصر فحطموا أبوابها، وإذا بهم أمام منظر تقشعر لهوله الأبدان.

رأوا في تلك الأقبية صفًّا متراصًّا من الخوازيق على كل منها هيكل بشري تدل عظامه على أنه هيكل امرأة!

وجدوا عشرات من تلك الهياكل فأخرجوها إلى ضوء النهار عملاً برغبة الملك الهائل، وألقوها في أعماق نهر الطونة فتقاذفتها أمواجه ثم ابتلعتها الواحد بعد الآخر.

ولم يعلم أحد منذ ذلك الوقت من أين جاءت تلك الهياكل البشرية ومن هن النساء اللواتي بطش بهن فلادو الروماني الملك الهائل رجل الخازوق!

وقيل إنهن من النساء الخائنات اللواتي كن يتجسسن لحساب الأعداء، وإن الأمير فلادو كان يأتي بهن سرّاً إلى قصره ويعدمهن بواسطة الخوازيق بلا جلبة ولا ضوضاء.

من أب مجهول

«الأمير فاسيلي طلق زوجته!».

هذا هو الخبر الذي انتشر في مدينة موسكو وامتد إلى أطراف روسيا في سنة ١٥٢٥، فتناوله الناس بالأخذ والرد، وقضى الأشراف والصعاليك والأغنياء والفقراء وأصحاب الأملاك والفلاحون أوقات فراغهم في الليل والنهار يتحدثون به ويتناقشون ويتجادلون.

الأمير فاسيلي طلق زوجته لأنها عاقر لم تلد له أبناء؛ ولأنه لا بد لعرش الإمارة الروسية من ولي عهد يرثها من بعد أبيه.

من هو فاسيلي؟

هو أمير روسيا قبل أن تصبح إمبراطورية موحدة الأجزاء موحدة العرش موحدة الميول، تزوج الأميرة «سالومية يوريفنا سابوروف» الجميلة الفاتنة، على أمل أن يرزق منها ولداً يرثه على العرش، وينصرف من بعده إلى إتمام ما بدأ به ذلك الأمير العظيم، فيجمع شمل القبائل الروسية تحت صولجان واحد وعَلَم واحد، ويقضي على الفوضى ونظام الإقطاع في تلك المملكة الشاسعة المترامية الأطراف.

لكن الأقدار لم تحقق أمنيته ولم تلد سالومية المولود الذي كان يرغب فيه.

وخشي الأمير أن يفوته الوقت وأن تبلغه الشيخوخة قبل أن يرى بجانبه ولي عهد لإمارته، فينتقل العرش من بعده إلى أسرة غريبة..

وعزم على العمل بنصيحة وزرائه والمقربين إليه، والنزول على إرادة المنجمين وأدعياء علم الغيب، فطلق زوجته العاقر وأجلس بجانبه على العرش فتاة كان يحمل لها في قلبه من قبلُ حبّاً شديداً.

تلك الفتاة هي «هيلانة فاسيليفنا جلنسكي» ابنة أمير من أصدقائه وأتباعه.

وارتفعت أصوات الشعب في كل مكان بالصلاة والتضرعات إلى الله، بأن يعطف

على الأمير فاسيلي المحبوب ويرزقه ولي عهد يكون مثل أبيه شجاعاً ذكيًا.

وجعلت الأميرة هيلانة تطوف بأنحاء روسيا وتزور الكنائس والأماكن المقدسة، طالبة من الله ألا يجعل حظها كحظ سابقتها الأميرة سالومية، وأن ينعم عليها بأن تكون أمّاً لأمير بعد أن أصبحت زوجة لأمير.

وأرسلت الزوجة الجديدة في طلب العرافين والمنجمين والسحرة، وجعلت تستطلع الغيب بواسطتهم، فقال لها العراف «روميسيانوس» ذات يوم: «سوف تلدين ولداً يكون في مستقبل الأيام من جبابرة التاريخ» وقال لها الراهب فيرابون: «لن يتم توحيد الأقطار الروسية وإنشاء الإمبراطورية إلا على يد أمير يدعى إيفان، ويرث الأمير فاسيلي على عرش روسيا!».

وأجمع العرافون والمنجمون والرهبان على أن الأميرة ستلد ابناً يرث أباه فاسيلي ويحمل لقب «قيصر الأقطار الروسية»!.

ولكن الأعوام مرت ولم تتحقق تلك الأمنية العزيزة، ولم تشعر الأميرة هيلانة بأن جنيناً يتحرك في أحشائها.

وطال الانتظار، وعيل صبر الأمير فاسيلي، وتضاعفت مخاوف الزوجة المسكينة، وأدركت أنها ذاهبة لا محالة في الطريق الذي ذهبت فيه الأميرة سالومية من قبلها، وأن زوجها سيطلقها كما طلق الزوجة الأولى!

ما العمل إذن وكيف السبيل إلى دفع الخطر الداهم؟

طلب الأمير أوبولنسكي ذات يوم من الأميرة هيلانة السماح له بمقابلتها لأن لديه سرّاً يريد الإفضاء به إليها، ولأن ذلك السر يتعلق بمستقبلها ومستقبل الإمارة والأسرة الملكية والعرش الروسي.

وسمحت الأميرة للشاب الجميل أوبولنسكي بالدخول عليها في حجرتها، ودار بين الاثنين حديث طويل لم يعلم أحد تفاصيله ولم تبح الأميرة بشيء عنه لأحد من الناس.

ولكن رجال الحاشية وموظفي القصر وقواد الجيش وأفراد الأسرة المالكية، رأوا

بعد ذلك اليوم الذي تقابلت فيه الأميرة هيلانة مع الأمير أوبولنسكي، أن صداقة متينة تربط الاثنين وأن الأمير الشاب يتمتع في القصر بحظوة لا يتمتع بها سواه من أقرب المقربين إلى فاسيلي وزوجته.

ونطق العرافون في تلك السنة بأقوال أعادت الأمل إلى النفوس. فقد قال أحدهم:

«في السنة القادمة تلد الأميرة ابناً تحييه السماء بقصف الرعود وسقوط الأمطار!».

وقال آخر:

«سوف تلد الأميرة ابناً تبشر به السماء جنود الإمارة في ميادين القتال بإشارة نارية تظهر في كبد الفضاء!».

وقال ثالث:

«سوف تلد الأميرة ابناً يوحد الأقطار الروسية تحت صولجان واحد، وسوف يرى ذلك الأمير النور في شهر أغسطس سنة ١٥٣٠!».

وأذيعت هذه النبوءات في أنحاء الإمارة، واعتقد الناس أن النحس قد ولى، وأن الأمير فاسيلي المحبوب سيرزق ابناً يتمم ما بدأ به أبوه.

وما مضت شهور على ذلك كله حتى أذيع في المدن والقرى والحقول، أن الأميرة حامل، وأن فرح الأمير فاسيلي بلغ أشده، وأن ولي العهد سيرى النور في شهر أغسطس سنة ١٥٣٠، كما تنبأ بذلك العرافون.

وفي الخامس والعشرين من ذلك الشهر وضعت الأميرة ابناً ذكراً، وشهد الجنود في ساحة القتال إشارات نارية تملأ الفضاء، وقصفت الرعود في سماء موسكو وهطلت الأمطار بغزارة في الجبال والسهول!

ودعي الطفل «إيفان» ونودي به ولياً للعهد وقرر والده أن يتبوأ ذلك المولود السعيد عرش روسيا من بعده باسم إيفان الرابع.

ولكنَّ أصواتاً ارتفعت في جوانب القصر وتسربت إلى الخارج وتناقلها الناس من مكان إلى مكان:

«إن ولي العهد لا يشبه أباه فاسيلي بل يشبه الأمير أوبولنسكي الجميل، الذي تعطف عليه الأميرة هيلانة عطفاً خاصًّا»!.

لكن تلك الإشاعات لم تصل إلى أذن الأمير فاسيلي، أو أنها قد وصلت إليه دون أن تؤثر فيه، فأحب ذلك الطفل الجميل، وعهد إلى كبار العلماء والقواد أن يسهروا على تربيته إذا ما امتدت يد الموت إلى أبيه يوماً من الأيام.

***

مات فاسيلي الثالث في سنة ١٥٣٣ وولي العهد في الثالثة من عمره، ولعبت أيدي الدساسين والنمامين في مقدرات الإمارة ردحاً من الزمن، وشهد ولي العهد في صغره مصائب الفوضى وويلاتها.

وفقد أمه هيلانة وهو في الثامنة من العمر.. ولكنه كان شجاعاً ذكيًّا قوي الإرادة، فتغلب على الصعاب بالرغم من حداثة سنه. وعندما بلغ الثامنة عشرة من العمر نادى بنفسه أميراً على روسيا، واتخذ للمرة الأولى لقب قيصر، وعزم على إنشاء إمبراطورية تكون أعظم إمبراطورية في الشرق والغرب.

وتحققت أمنيته. وعرف ذلك القيصر في التاريخ باسم إيفان الهائل، وهو الذي يعود إليه الفضل في تأسيس الإمبراطورية الروسية العظيمة.

وكانت ألسنة السوء قد أفضت إليه بسر مولده، فأراد أن يعرف هل هو ابن الأمير فاسيلي الثالث حقًّا أو ابن المدعو أوبونسكي؟

لكن التحقيق الذي قام به لم يسفر عن نتيجة حاسمة. ولم يتمكن إيفان الرابع من تمزيق الستر عن ذلك السر بالرغم من الفظائع التي ارتكبها في هذا السبيل، ومات معه سر مولده فأضيف إلى أسرار القصور الكثيرة التي لا تزال مجهولة إلى الآن.

ولم يعرف أحد بعد من هو والد القيصر إيفان الرابع المعروف في التاريخ بإيفان الهائل!

مقاريوس

مقاريوس رجل طيب القلب، وكاهن جليل، وأسقف يخدم رعيته بنزاهة وإخلاص، وروسي يحب بلاده وأميره ويرغب رغبة صادقة في أن يوحد ذلك الأمير الأجزاء المتناثرة من الأصقاع الروسية الشاسعة، ويجعل منها دولة واحدة يكون هو ملكها أو قيصرها.

وذلك الأمير الذي يضع فيه مقاريوس، أسقف روسيا المخلص النزيه، آماله وأمانيه، هو الأمير إيفان فاسيليفتش، أو إيفان الرابع كما كانوا يسمونه.

كان إيفان بعيد المطامع، وقد راقته فكرة الأسقف مقاريوس فوافقه على تنفيذها بجميع الوسائل والأساليب، وأطلق يده في إعداد العدة لذلك العمل الجليل، واكتساب رؤساء الدين الذين كان نفوذهم عظيماً في أنحاء روسيا، وعلى الخصوص في المزارع والحقول والجبال.

ولم تمض بضع سنوات على تسلم إيفان الرابع أريكة الإمارة خلفاً لأبيه أو الذي كان يظنه أباه فاسيلي الثالث، حتى كان كل شيء قد تم بالوعد أو الوعيد، واحتفل في السادس عشر من شهر يناير ١٥٤٧ بتتويج الأمير إيفان الرابع قيصراً على روسيا المتحدة.

ونشرت وثيقة المبايعة التي اعترف فيها الأمراء الآخرون بالأمير إيفان الشاب قيصراً وسيداً عليهم، فإذا بها تحمل سبعة وثلاثين توقيعاً.

وبعد أن انتهت حفلة التتويج، اختلى القيصر الجديد بالأسقف مقاريوس، ودار بين الاثنين الحديث الآتي:

- الآن وقد أصبح أميري المحبوب قيصراً على روسيا المتحدة من أدناها إلى أقصاها، يجب عليّ أن أطلعه على سر لم أبح به لأحد بعد..

- أي سرّ هذا يا سيادة الأسقف، وهل كنت تخفي عني شيئاً وأنت تتصرف في شؤون الإمارة كما تريد؟

- نعم، ولكنني أخفيت عنك ذلك السر خوفاً من أن تفشيه لأحد قبل تتويجك.. إنك في الثامنة عشرة من عمرك يا صاحب الجلالة والشاب أقل مقدرة من الكهل أو من الشيخ على حفظ الأسرار وعدم إفشائها، أما السر الذي لا بد من إطلاعك عليه. فهو أن وثيقة المبايعة التي جئتك بها موقعاً عليها من سبعة وثلاثين من الأمراء، والتي بموجبها نادينا بك اليوم قيصراً على روسيا هي وثيقة مزورة.

- وكيف ذلك؟

- نعم، لم يوقع على تلك الوثيقة غير اثنين فقط من الأمراء، أما الباقون فقد وقعت أنا بالنيابة عنهم، أي إنني زورت توقيعاتهم كي يتم لنا بالحيلة ما لم نتمكن من الحصول عليه بالإقناع!

- ولكن هذه مسألة خطيرة؟

- ليست خطيرة بقدر ما تظن. ولن يجرؤ واحد من أولئك الأمراء أن يجهر أمام الآخرين بأنه لم يوقع على الوثيقة، لأنه يعتقد أن الآخرين جميعهم وقعوا عليها وأنه وحده الذي خُدع. فكن مطمئن البال يا بني واحذر أن يبدر منك أمام أحد أولئك الأمراء - وجميعهم أتباعك - ما من شأنه أن يعكر صفو العلائق الحسنة الودية بينك وبينهم، والآن بقي عليَّ أن أجد لك بين فتيات المملكة زوجة جميلة تلد لنا في أقرب وقت ولي عهد لعرش القياصرة!

قلنا: إن الأسقف مقاريوس كان طيب القلب مخلصاً نزيهاً. ولكنه كان لا يتردد أمام شيء في سبيل مليكه وتوحيد الإمارات تحت رايته. وهذا ما حمله على تزوير خمسة وثلاثين توقيعاً من توقيعات الأمراء، وتلفيق الوثيقة الرسمية التي بموجبها وضعت أسس عرش القياصرة في موسكو!

وبعد أن هدأ بال القيصر من هذه الناحية، أوفد مقاريوس رسله إلى أطراف روسيا، ليبحثوا له عن فتيات جميلات، وأعلن في كل مكان أن القيصر يرغب في اتخاذ إحدى بنات أتباعه زوجة له.

تلك كانت العادة المتبعة في ذلك الوقت. فإن كل أب يجري في عروقه دم شريف، كان يرسل ابنته إلى موسكو، فتجتمع في العاصمة مئات الغيد الحسان، وينزلن جميعاً في قصر يضعه القيصر تحت تصرفهن لهذا الغرض، ثم يطوف عليهن في يوم معين ويفحصهن، ويفرزهن، ويختار من بينهن الفتاة التي تكون جديرة بعطفه وحبه.

وعلامة العطف والحب منديل من الحرير يلقيه القيصر على الأرض أمام الفتاة السعيدة الحظ، وخاتم ثمين يقدمه لها بواسطة أحد رجال الحاشية.

وبينما الأفراح تعم المملكة والناس في كل مكان يتحدثون عن حفلة التتويج، إذا بهم يفاجؤون بخبر حفلة أخرى حدد لها اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٥٤٧.

القيصر يتزوج!

تمكّن الأسقف مقاريوس من جمع خمسمائة فتاة من أبدع فتيات روسيا جمالاً وأوفرهن مالاً في العاصمة موسكو، حيث عرضن على صاحب العرش، فوقع اختياره على أنستازيا رومانوفنا زخارين كوشكين، التي كان أبوها وجدها من كبار الموظفين في عهد والده إيفان وجده.

وفي ٣ فبراير أقيمت الأفراح في أنحاء المملكة احتفالاً بزواج إيفان الرابع قيصر روسيا، الذي عرف فيما بعد باسم إيفان الهائل.

وفي مساء ذلك اليوم وصل رجل غريب إلى القصر وطلب مقابلة الأسقف مقاريوس، قائلاً إن لديه أموراً هامة يرغب في الإفضاء بها إليه.

وما وقع نظر الأسقف على الغريب حتى صاح في وجهه:

- ما جاء بك إلى هنا يا أورلوف وعهدي بك في جبال الأورال ترعى الماشية وتحفظ العهد الذي قطعته على نفسك؟

فسكت الرجل لحظة ولم يجب على سؤال الأسقف. ثم طلب كأساً من الخمر فشربها. وبعد أن استراح من التعب الذي كان بادياً عليه قال للأسقف:

- اسمع يا سيدي. إن الإنسان يرقب في حياته الفرص السانحة لاغتنامها والاستفادة منها، وأنا إنسان كبقية البشر وأمامي الآن فرصة سانحة لابد لي من اغتنامها والاستفادة منها، فقد وقع اختيار القيصر على إنستازيا ابنة زخارين. وانستازيا رأت النور في ظروف يجهلها الناس فلا يعرف سر مولدها غير اثنين في هذا العالم: الأسقف مقاريوس والراعي أورلوف: أي أنا وأنت يا سيدي. ولست أطيل عليك الشرح وأضيع عليك وقتك الثمين. فأنت تتمتع بجميع ما يحلم به إنسان من نعم في هذا العالم. أما أنا فلا أزال فقيراً، نعم لقد نفحتني بمبلغ من المال ولكنه لا يكفي، فإما أن تجعلني غنياً وإما أن أبوح بالسر الذي أعرفه وأقول للقيصر وللناس أجمعين إن الفتاة التي وقع عليها اختيار صاحب العرش زوجة له، ليست ابنة زخارين بل ابنة رجل مجهول!

فقاطعه الأسقف صائحاً:

- أيها الشقي، ألا تعلم أن عملاً كهذا سوف تكون عواقبه وخيمة عليك؟

- لا يهمني، فإما أن أصبح غنياً وإما أن أحدث فضيحة في البلاط وأذهب ضحيتها!

فكر مقاريوس هنية، ثم قال:

- اذهب إلى منزلي وانتظرني هناك.. سيكون لك ما تريد.

***

وفي اليوم التالي أعلن في المدينة أن رجلاً مجهولاً دخل القصر في أثناء حفلة الزواج وحاول اغتيال القيصر، وأنه فشل في محاولته فثار جنونه وجعل يفوه بأشياء من شأنها تشويه سمعة القيصرة وسمعة القيصر أيضاً.

وأعلن في آن واحد أن الرجل سجين في منزل الأسقف مقاريوس، الذي أنقذ حياة القيصر وقبض على المجرم، وأن ذلك المعتوه - واسمه أورلوف - سوف يلاقي

جزاء صنعه ويعدم في مساء ذلك اليوم.

وأعدم أورلوف في مساء ٤ فبراير سنة ١٥٤٧ وحمل معه سر مولد القيصرة انستازيا.

ولكن إلى حين..

فقد عثروا بعد ذلك التاريخ على اعتراف خطي بيده، يقول فيه: إن الفتاة التي وقع عليها اختيار القيصر إيفان الرابع لم تكن ابنة أبيها بل ابنة رجل مجهول، يقال: إنه فاسيلي الثالث والد إيفان الرابع.

فهل تزوج إيفان الهائل أخته؟

كلا، فإن إيفان نفسه لم يكن ابن أبيه بل ابن ضابط جميل من ضباط الحاشية في عهد أبيه فاسيلي!

ذلك هو السر الذي حاول مقاريوس أن يخفيه عن الناس في ذلك اليوم الذي احتفل فيه بزواج القيصر. وقد كان له ما أراد ومات إيفان الهائل دون أن يعرف من هو أبوه، ودون أن يعلم أن زوجته المحبوبة إنستازيا ثمرة غرام آثم مثله.

ولم يعلم أحد أيضاً أن الوثيقة التي بويع بموجبها إيفان الهائل كانت مزورة سوى الأسقف مقاريوس، وعندما علم الناس ذلك فيما بعد على أثر البحث والتنقيب لم يعلموا من هم الذين زورت توقيعاتهم؟ ومن هما الاثنان اللذان وقعا الوثيقة دون بقية الأمراء؟

هذه قصة الوثيقة المزورة.

وهذه قصة القيصر المولود من أب مجهول والذي تزوج فتاة مولودة من أب مجهول!

يتيمة القصر

لم يعرف أحد اسمها الحقيقي ولم يعلم أحد من أين أتت تلك الفتاة، فإن حياتها بقيت سرّاً من الأسرار، والرجل الوحيد الذي كان في استطاعته أن يفضي إلى الناس بحقيقة أمرها، ولم يفعل شيئاً من ذلك بل ظل صامتاً متكتماً، وحمل معه سر الفتاة إلى القبر.

ذلك الرجل هو نابوليون بونابرت.

أما الفتاة فقد عرفت في مصر باسم «سلمى» وعرفت في فرنسا باسم «ماري» ثم أطلق عليها فيما بعد اسم «جولييت».

عرفها بونابرت في مصر... فقد سحق القائد الفرنسي الشاب جيش المماليك في معركة «إمبابة» المعروفة بمعركة «الأهرام» والتي قيل: إن بونابرت خاطب جنوده في إبانها قائلاً لهم: «إن أربعين قرناً تنظر إليكم من فوق هذه الأهرام» وذلك في ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨.

وفي اليوم التالي دخل الفرنسيون القاهرة، وفر مراد بك زعيم المماليك على رأس ثلاثة آلاف فارس إلى الوجه القبلي، وتعقبه فريق من الفرنسيين للقضاء عليه، وفي ٢٧ يوليه دخل بونابرت المدينة في موكب حافل.

وجيء إليه ذات يوم في قصره بحي الأزبكية بفتاة بارعة الجمال أمسك بها الجند وهي تحاول الوصول إلى القائد بلا استئذان، فأكرم بونابرت وفادتها، وطلب إليها أن تطلعه على حقيقة أمرها وعلى السبب الذي من أجله طلبت الوصول إليه.

رفضت الفتاة أن تجيبه أمام رجال حاشيته وضباط جيشه، فأدخلها نابوليون بونابرت إحدى قاعات القصر، واختلى بها ساعة كاملة، ثم خرج وأصدر أمره إلى الضابط المشرف على النظام في القصر بأن يعد للفتاة حجرة تقيم فيها، وأوصاه بها خيراً، وطلب إليه أن يحذر الضباط والجنود من التعرض لها.

وكانت الفتاة تحسن اللغتين الفرنسية والعربية، وكل ما عرفه عنها الناس أن اسمها «سلمى» وأنها من نساء المملوك مراد بك، هربت من قصره بعد انهزامه والتجأت إلى القائد الفرنسي، فضافها ووضعها تحت حمايته.

أما جنسيتها ودينها وشخصيتها وأسرتها وتاريخ حياتها، فهذا ما لم يعرف الناس عنه شيئاً، وما لم يطلع عليه غير بونابرت.

وكانت الفتاة تروح وتجيء في القصر، وتخرج أحياناً إلى الأسواق، وتجالس الضباط الفرنسيين في أماكن اللهو التي أنشأها بونابرت في الأزبكية، وتستقبل بعض كبراء المصريين من أعضاء المجلس الكبير، ولكنها كانت دائماً تخفي وجهها وراء حجاب كثيف، بحيث لا يرى الناظر إليها من جمالها الفتان غير عينين سوداوين براقتين. ولم ترفع الفتاة الحجاب عن وجهها قط، إلا عندما كان نابوليون بونابرت نفسه يطلب منها ذلك في مجلسه وأمام ضباط جيشه.

وكثيراً ما رآها سكان القاهرة في ذلك الوقت بين رجال الحاشية، ووراء القائد الفرنسي، في الحفلات الرسمية والأعياد القومية، كفتح الخليج والمولد النبوي وغيرهما.

واختفت الفتاة سلمى عن الأنظار عندما غادر بونابرت القاهرة على رأس جيشه، وسار به لفتح سورية، حيث ذاق للمرة الأولى مرارة الفشل والانكسار، وعجز عن اقتحام أسوار عكا المنيعة.

لم تظهر سلمى أمام الناس طول ذلك الوقت، ولم يرها الضباط والجنود والسكان إلا بعد أن عاد بونابرت من سورية.

ثم سافر القائد الشاب إلى فرنسا خلسة كما هو معلوم، في ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩.

ومنذ ذلك اليوم لم يقع نظر أحد على الفتاة سلمى. وأدرك الجميع أنها سافرت مع القائد إلى فرنسا، أو أنها لحقت به بعد رحيله بأيام.

وانطلقت الألسنة تذيع الإشاعات والأقاويل، عن علاقة بونابرت بتلك الفتاة المجهولة الغريبة الأطوار، فادعى بعضهم أنها عشيقته، وذهب آخرون إلى أنها جاسوسة كان بونابرت يستخدمها لقضاء بعض الشؤون الخاصة.

وكان الناس كلما ذكروها يسمونها «يتيمة القصر».

وبهذا الاسم عرفها الفرنسيون في باريس، حيث أعد لها بونابرت حجرة خاصة في قصره، ولكنه طلب إليها أن تغير اسمها العربي، وأطلق عليها اسم «ماري».

وبعد أن رفعت الأقدار القائد بونابرت إلى أوج المجد فجلس على عرش فرنسا، وأصبح صديق سلمى يدعى نابوليون الأول، وزحف ذلك النابغة العبقري بجيشه اللجب على دول أوروبا المتحالفة يجتاح أراضيها ويدك عروشها ويحطم تيجانها ويحتل عواصمها، كانت الفتاة «ماري» تلحق بالجيش أينما حل وحيثما ذهب، تعتني بالجرحى وتشجعهم على تحمل الآلام في سبيل الوطن والمبدأ والإمبراطور.

وكان نابوليون يدعوها إليه كلما أقام مدة من الزمن في عاصمة من عواصم أوروبا، فمكثت ماري في قصور الأباطرة والملوك في برلين وفينا وموسكو وغيرها من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٨١٣.

وشهدت حريق «الكرملن» مقام القياصرة في عاصمة روسيا. ونامت في الحجرة التي شاءت الأقدار بعد ذلك الوقت بسنوات أن ينام فيها ابن نابوليون الأول «فرخ النسر» في قصر شنبرون في فينا.

وظلت الألسنة تتناقل الإشاعات والأقاويل عن الفتاة التابعة للإمبراطور كظله، وأطلق عليها بعض الضباط اسم «جولييت» على سبيل المداعبة، وكانوا يتهامسون فيما بينهم بأن «روميو» عشيق الفتاة هو الإمبراطور نفسه.

ولكن الظواهر لم تدل في وقت من الأوقات على أن لنابوليون علاقة أثيمة بتلك الفتاة الغريبة المجهولة الأصل. وكان كلما حدثه عنها أحد يبدو التأثر على وجهه، ويقول بصوت متهدج: «إن ماري فتاة شجاعة نبيلة. وإنني أحفظ لها ولأهلها في

أعماق قلبي أطيب الذكرى!».

وفي شهر مارس سنة ١٨١٤ كانت سلمى أو ماري أو جوليت أو يتيمة القصر مقيمة في باريس، حيث أصيبت بحمى شديدة أودت بحياتها بعد ثلاثة أيام.

وكان الإمبراطور في ذلك الوقت يعاند الأقدار ويواجه الصعاب وقد اكتنفته من كل حدب وصوب، فاضطرته الظروف والأحوال إلى التنازل عن عرشه بعد وفاة «يتيمة القصر» بثلاثة أسابيع.

ولكنه علم بموتها قبل رحيله عن فرنسا. فأمر وهو في ميدان القتال بأن تدفن الفتاة في «فونتنبلو» وبأن يوضع على قبرها إكليل من الورد الأبيض عليه اسم الإمبراطور. وظلت شخصية الفتاة المعروفة باسم يتيمة القصر سرّاً من أسرار القصور في عهد نابليون.

أفرنسية هي أم مصرية؟

أعشيقة نابوليون هي أم جاسوسة كما كانوا يقولون؟

هذا ما لم يعلمه أحد - ولن يعلمه أحد - فقد دفن سر الفتاة معها ومع الإمبراطور!

ابن النسر الصغير

نهض الدوق دي ريتشاد في ذلك اليوم من نومه مبكراً، وارتدى ثوبه الأبيض وتقلد سيفه المرصع بالجواهر، وأسرع إلى الحديقة الغناء حيث كانت تنتظره صديقته - زوجة خاله - الأرشيدوقة صوفيا دي هبسبورج الجميلة الفاتنة.

تعانق الاثنان طويلاً، وتبادلا قبلات أحر من الجمر، وبكى الأمير الشاب المريض بكاء مرّاً، وكانت ابتسامات الأسى تتخلل زفراته وتنهداته.

سألته صوفيا:

- أما رأيت أحداً في طريقك إلى هنا؟

فطوق الأمير عنقها بذراعيه والتهم شفتيها بقبلة وقال:

- كلا. لم يقع نظري في طريقي إلى هنا إلا على بعض الخدم وهم يقومون بأعمالهم اليومية. لقد أردت أن تكون أول كلمة تنطلق من فمي اليوم موجهة إليك أيتها الحبيبة.

- حسناً فعلت. فإن هذا اليوم ليوم سعيد. أنت الآن في العشرين من العمر!

- نعم. نحن في سنة ١٨٣١.

- أرجو أن لا ينقضي العام المقبل إلا وأنت جالس على عرش أبيك العظيم في باريس!

- هذا أمل يضعف في نفسي يوماً بعد يوم. إن عرشي هنا.. هنا في صدرك... هو عرش الحب يا صوفيا!

- حبيبي، لقد سبقت الأقدار فألحقت مصيري بمصير رجل آخر، هو الدوق فرنسوا شارل خالك وشقيق أمك. ولكن مكانك في هذا القلب لا يعلو عليه مكان. هل تشك في حبي يا...

- يا نابوليون ألا أريد منك أن تسميني بغير هذا الاسم الذي عرف به أبي، والذي دون في بطون التاريخ برؤوس الأسنة ودخان المدافع ودوي الطبول. إنني لا أشك في حبك يا صوفيا، ولكنه حب عقيم، حب وضعنا له قيوداً ورسمنا له حدوداً.

- إنني منذ هذه الساعة وفي هذا اليوم السعيد أحطم القيود وألغي الحدود!

- حقّاً؟ أتفعلين هذا؟

- نعم يا نابوليون!

- حبيبتي!

- حياتي!

وكانت قبلة لو علم بها الأرشيدوق فرنسوا شارل دي هبسبورج، زوج الأرشيدوقة صوفيا، وشقيق الإمبراطورة ماري لويز، وخال الدوق دي ريشتاد ابن نابوليون الأول، لاندلعت في صدره نيران الغيرة والغيظ، ولأنزل بالعاشقين العقاب الذي يستحقانه، ولأدرك أن زوجته تخونه أو أنها على وشك أن تخونه مع ذلك الأمير الشاب المريض السجين.

***

ولد فرنسوا شارل نابليون جوزيف بونابرت ابن الإمبراطور نابوليون الأول في سنة ١٨١١ . وتطلعت إليه الأنظار وما كان أحد يدري في ذلك الوقت أنه سيذهب ضحية السياسة والدسائس، بل ضحية الغدر والخيانة. فما أن سقط أبوه عن عرشه حتى تلقفته أيدي أعدائه – وهم أهله – فنقل إلى النمسا حيث قضى حياته سجيناً في قصر شنبرون.

وعرف في التاريخ باسم «الدوق دي ريشتاد» بالرغم من أن الفرنسيين بايعوه باسم «نابوليون الثاني».

ومات «النسر الصغير» مريضاً بعيداً عن وطنه في سنة ١٨٣٢ بقصر شنبرون،

كما مات أبوه «النسر الكبير» بعيداً عن وطنه في سنة ١٨٢١ بجزيرة القديسة هيلانة النائية.

أما أمه الإمبراطورة ماري لويز فبعد أن كانت زوجة لأعظم عاهل أوروبي اكتسحت جيوشه الممالك ودكت العروش، فإنها رضيت بأن تكون زوجة لضابط بسيط، وأنساها غرامها الجديد واجب الذكرى نحو زوجها وواجب الحنان نحو ابنها.

لكن الأقدار أرسلت إلى الأمير الشاب الحزين امرأة حسناء بارعة الجمال رقيقة الشعور، وجد السجين بقربها العزاء والحب.

تلك المرأة هي الأرشيدوقة صوفيا، زوجة الأرشيدوق فرنسوا شارل شقيق ماري لويز أم النسر الصغير.

وقد نشأ الحب بين الشاب وزوجة خاله في قصر شنبرون، وترعرع في ظلال الأشجار، في تلك الحديقة الغناء المحيطة بالقصر.

وقدمت الأرشيدوقة الجميلة واجب الزوجية قرباناً على مذبح الغرام حباً بالأمير الشاب وشفقة عليه في وحدته.

ورزقت من زوجها ولداً أسمته «فرنسوا جوزيف».

ورزقت من عشيقها الدوق دي ريشتاد ولداً أسمته «مكسيمليان».

أما «فرنسوا جوزيف» ابن الأرشيدوقة صوفيا من زوجها فرنسوا شارل، فقد ولد سنة ١٨٣٠ واعتلى عرش النمسا بعد تنازل جده وأبيه عن حقوقهما.

وأما «مكسيمليان» ابن الأرشيدوقة صوفيا من عشيقها «النسر الصغير» فقد ولد سنة ١٨٣٢ ولكن مصيره كان غير مصير أخيه.

كان نابوليون الثالث، الذي أعاد الملك في فرنسا إلى أسرة نابوليون، لا يجهل أن الأرشيدوق مكسيمليان النمساوي هو ابن ذلك النسر الصغير نابوليون الثاني ابن العاهل الفرنسي العظيم.

وأراد نابوليون الثالث أن يجلس ذلك الأرشيدوق الذي يجري في عروقه دم «بونابرت» والذي كان ثمرة غرام الشاب السجين في قصر شنبرون على عرش جدير بحسبه ونسبه.

أليس نابوليون الثالث وارث مجد الأسرة؟

أليس الدوق دي ريشتاد النسر الصغير ابن عمه العظيم، الذي دوخ أوروبا ورفع الأسرة من الحضيض إلى أوج العلا؟

أليس مكسيمليان، الابن الذي حرمته الشرائع الحق في أن يحمل اسم أبيه أجدر من سواه في اعتلاء عرش يجب أن يخلق لأجله من اليوم؟

أراد نابوليون الثالث أن يوجد له ذلك العرش في أوروبا، فاقترح على الإمبراطور فرنسوا جوزيف أن ينادي بالأرشيدوق مكسيمليان ملكاً على البندقية. لكن الإمبراطور النمساوي الذي كان يعلم حق العلم أن أخاه يكون حليفاً لفرنسا عليه، وأنه أقرب إلى أسرة «بونابرت» منه إلى أسرة «هبسبورج» رفض الموافقة على ذلك الاقتراح، وطلب إلى صديقه نابوليون الثالث أن يبحث لأخيه عن عرش يكون بعيداً عن حدود النمسا قدر المستطاع!

وظل الإمبراطور نابوليون الثالث يرقب الفرص السانحة إلى أن ساعدته الظروف فقامت في بلاد المكسيك الأمريكية ثورات زعزعت كيانها، واستدعت تدخل الدول الأوربية لإعادة السكينة إلى تلك الديار.

وفعلت السياسة فعلها وساعدتها الأموال الطائلة التي بذلها نابوليون الثالث. فاجتمع أعيان المكسيك في ٨ يوليه سنة ١٨٦٣ وقرروا جعل بلادهم إمبراطورية وعرضوا عرشها على الأمير مكسيمليان.

تردد الرجل في بادئ الأمر لأنه كان يوجس شرًّا من قبول ذلك العرش البعيد والسفر إلى ذلك القطر الذي عرف من قديم الزمان بأنه موطن الثورات والقلاقل. لكن نابوليون الثالث ألح عليه وعاهده على أن يشد أزره في الملمات. فلم ير مكسيمليان

بدًا من القبول، وأعلن في شهر أبريل سنة ١٨٦٤ أنه يرتقي عرش المكسيك.

ودخل الإمبراطور الجديد مدينة مكسيكو عاصمة ملكه في اليوم الثاني عشر من شهر يونيه سنة ١٨٦٤ بينما كانت الجيوش الفرنسية التي جردها صديقه نابوليون الثالث وأرسلها إلى المكسيك، تطارد الثائرين وترغم العصاة على الخضوع والإذعان لإرادة أوروبا.

***

شغلت حوادث أوروبا الإمبراطور نابوليون الثالث عن نصره قريبة إلى النهاية. وما لبث مكسيمليان أن وجد نفسه وحيداً في بلاد لا تحبه ولا تريده إمبراطوراً عليها، وبين أقوام يعدونه غريباً. فجعل يتخبط وسط المشاكل والثورات، ويحاول عبثاً أن يقوي مركزه ويحمي عرشه المزعزع.

أوفد زوجه الإمبراطورة شارلوت إلى باريس، حيث سعت لدى الصديق نابوليون الثالث، واستغاثت به من جديد قائلة: إن زوجها معرض لأشد المخاطر هولاً، إذا لم يمد إليه الإمبراطور الفرنسي يد مساعدته، ويعدل عن قراره الأخير وهو أن يدعو البقية الباقية من جيوشه للجلاء عن المكسيك.

لكن العاهل الفرنسي لم يصغ إلى تضرعات الإمبراطورة وزوجها وفي سنة ١٨٦٧ لم يبق في المكسيك جندي أوربي يشد أزر الإمبراطور الغريب.

حاول الرجل الغريب أن يقاوم الأعداء ولكنهم تكاثروا عليه. وفي شهر مارس سنة ١٨٦٧ كانت الفوضى قد عمت البلاد وكان الثائرون قد ضيقوا الخناق عليه فأرغموه على الفرار من عاصمته والالتجاء مع أنصاره إلى مدينة «كريتارو» حيث حاصروه من كل ناحية.

وفي ١٤ مايو من تلك السنة خانه أحد أعوانه وفتح أبواب قلعة «كروز» لأعدائه فدهموا المدينة واضطر مكسيمليان إلى التسليم.

وفي ١٣ يونيه أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بإعدام الإمبراطور الدخيل.

وفي ١٩ يونيه نفذ الحكم في مكسيمليان الأول إمبراطور المكسيك رمياً بالرصاص.

وبعد أن هدأت العاصفة نقل أمير البحر النمساوي «تبجيتوف» جثمان ذلك التعس على بارجة حربية إلى أوروبا.

وأسدل الستار على الفصل الأخير من تلك المأساة.

***

في النمسا يرقد الآن الدوق دي ريشتاد النسر الصغير ابن نابوليون الأول.

وفي النمسا يرقد الإمبراطور مكسيمليان ابن النسر الصغير وحفيد نابوليون الأول.

وفي النمسا يرقد الآن الإمبراطور فرونسوا جوزيف أخو الإمبراطور مكسيمليان المكسيكي.

وفي النمسا يرقد الآن الأرشيدوق فرنسوا شارل والد الإمبراطور فرنسوا جوزيف، والذي يريد التاريخ أن يجعله أيضاً والد الإمبراطور مكسيمليان، لأن التاريخ يأبى في معظم الأحيان أن يفضح أسرار القصور ويعيد الحقائق إلى نصابها!

وفي النمسا ترقد الآن الأرشيدوقة صوفيا دي هبسبورج زوجة فرنسوا شارل النمساوي وعشيقة نابوليون الثاني الفرنسي وأم الأخوين اللذين يريدهما التاريخ شقيقين.

أم الإمبراطور فرنسوا جوزيف من زوجها، وأم الإمبراطور مكسيمليان من عشيقها!

الميت الحي

دخل إسكندر الأول قيصر روسيا التقي الورع القوي الشجاع، مع من دخل من ملوك الحلفاء وأمرائهم وقوادهم عاصمة الفرنسيين باريس الجميلة، مدينة النور والعرفان، على إثر انهزام الإمبراطور العظيم نابوليون الأول وفراره مرغماً من فرنسا سنة ١٨١٤.

واتخذ الإمبراطور الروسي قصر الإيليزيه مقرًّا له، لكنه جعل يتردد كل يوم على منزل منعزل في شارع صغير من شوارع العاصمة، تقيم فيه امرأة يقول البعض إنها روسية، والبعض إنها ألمانية، ويدعي آخرون أنها رأت النور في قصر قصي من الأقطار الشرقية المجهولة.

واسم تلك المرأة «البارونة دي كرودنر» وهي على جانب عظيم من الجمال، لكنها منصرفة عن شؤون هذا العالم إلى شؤون عالم آخر. فهي تعيش بجسمها في باريس، ويتيه عقلها ويسبح خيالها وراء حدود الكون المنظور.

والبارونة دي كرودنر مثل القيصر الروسي تقية ورعة على صلة بالأبرار وأولياء الله والقديسين. تنادي الأرواح فتلبي الأرواح النداء، وتزور البارونة الطيبة القلب وتتجاذب معها أطراف الحديث متى شاءت وأينما أرادت.

وانتقلت العدوى منها إلى الإمبراطور فأراد هو أيضاً أن تتوثق عرى الألفة بينه وبين الأرواح، فأهمل مثل البارونة شؤون هذا العالم وانصرف عنها إلى شؤون العالم الآخر. وأصبح يعيش بجسمه في باريس، ويتيه عقله ويسبح خياله وراء حدود الكون المنظور.

وانطلقت الألسنة - وما أطولها في باريس - تلوك الأخبار والإشاعات عن علاقة الرجل المتوج بالمرأة المعتوهة. هذا يقول إنه يحبها، وذاك يدعي أنه رزق

منها ولداً سيجعله ولي عهده لأن زوجته الإمبراطورة عاقر لم تحبل ولم تلد ولن تحبل ولن تلد.

وكان القيصر منذ نعومة أظفاره يتطلع إلى السماء ونعيمها، أكثر من تطلعه إلى ملذات هذه الحياة الدنيوية وما يحيط بالعروش من مظاهر الجلال والمجد والإكرام.

وكم من مرة أفضى ذلك الرجل الممتلئ قوة ونشاطاً إلى زوجته وأمه وأخويه بعزمه الثابت على التنازل عن العرش مختاراً، وقضاء بقية حياته في دير بعيد أو في صومعة وسط الجبال.

لكن مشاغل الملك حالت دون تحقيق رغبته. فقد اضطرته الظروف والأحوال إلى الانضمام إلى الدول الأوروبية المتحالفة على نابوليون، وكان ذلك عند ارتقائه عرش روسيا سنة ١٨٠١، فنزل القيصر إلى ميدان الحرب والكفاح، وكانت الهزيمة نصيبه في معارك أوسترليتز وايلو وفريدلاند، ثم عقد مع عدوه صلحاً لم يدم غير سنوات معدودة، فحاربه من جديد سنة ١٨١٢ عندما اكتسح نابوليون بجيوشه الجرارة الإمبراطورية الروسية، ونصب أعلامه على أسوار عاصمتها وظلت الحرب قائمة بين العاهلين إلى أن تم للحلفاء ما أرادوا. فترك نابوليون فرنسا وعادت أسرة بوربون إليها بمساعدة إسكندر الأول وأصدقائه.

وبعد تحقيق هذه الأمنية جعل القيصر من جديد يفكر في اعتزال الملك ودخول الدير.

***

وانقضت الأعوام وأقرباء القيصر يستخدمون نفوذهم للتأثير عليه ومنعه من الإقدام على عمل لم يروا فيه فائدة لوطنهم، وهم يضعون مصلحة الوطن فوق كل مصلحة، ويعتبرون هيبة التاج فوق كل اعتبار.

ومرت عشر سنوات على تلك الأيام التي قضاها إسكندر الأول في باريس، يتلقى الوحي من البارونة دي كرودنر، ويطلع على أسرار علومها الروحانية ومجاريها في أحلامها وتخيلاتها.

البارونة الآن بعيدة عن ضوضاء العالم. تعيش عيشة النساك المثقفين في دير شيدته على نفقتها الخاصة - أو نفقة الإمبراطور كما يقولون - على شاطئ بحر آزوف. وقد جعلته ملجأ للنساء والرجال الذين يرغبون في اعتزال الحياة قبل أن يدركهم الموت وتحقق رغبتهم. وقد التجأ إلى ذلك الدير عدد كبير من أمثال البارونة واتصلوا هناك بأرواح الأموات في العالم الآخر!!

وحدث في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٥ أن غادر الإمبراطور فجأة عاصمة ملكه، بصحبة زوجته الإمبراطورة ماريا فيدورفنا واثنين من المقربين إليه. وأعلن في ذلك اليوم أن إسكندر الأول في حاجة إلى الراحة وأنه سيأخذ نصيبه منها في قرية تجانروج الهادئة.

وقضى هناك شهرين كان في خلالهما يغادر القرية من وقت إلى آخر ويذهب إلى شاطئ بحر آزوف.

٥ نوفمبر ١٨٢٥ : أصيب الإمبراطور بالحمى واضطر إلى ملازمة الفراش.

٩ نوفمبر: تحسنت حالة الإمبراطور وتماثل إلى الشفاء.

١٧ نوفمبر: عاودته الحمى واضطرته إلى ملازمة الفراش.

١٨ نوفمبر: مات الإمبراطور.

عم الحزن أنحاء الإمبراطورية المترامية الأطراف. ووفد الشعب من كل حدب وصوب للاشتراك في دفن الجثة العزيزة المحبوبة المحترمة.

وبعد شهر من ذلك اليوم نقل نعش الإمبراطور إسكندر الأول من تجانروج إلى بطربسبرج العاصمة، وفي الثالث عشر من شهر مارس ١٨٢٦ - أي بعد وفاة

القيصر بأربعة أشهر - وضع النعش في مدافن التاج في قلعة القديسين بطرس وبولس، وأطلقت المدافع إيذاناً بأن القيصر قد رحل عن هذا العالم حيث التعب والشقاء إلى نعيم الخلد حيث الراحة والهناء!!

***

سبتمبر ١٨٣٦:

قبض رجال الشرطة في جبال الأورال على رجل في ثوب فلاح يجوب تلك الناحية على متن جواده، فعدوه من المتشردين وجلدوه عشرين جلدة.

ثم ألقوه في غياهب السجن.

لكن أمير من أفراد الأسرة المالكة أسرع إلى ذلك المكان، وأنقذ المتشرد من سجنه، وأرسله في حراسة كوكبة من الفرسان إلى مجاهل سيبيريا.

واشتغل الرجل مع المجرمين والقتلة في ذلك الليمان القصي.

رآه مرة أحد الجنود القدماء فصاح قائلاً:

«هذا والدنا إسكندر، هذا القيصر المحبوب».

ورأته مرة الفلاحة الجميلة نكيفروفنا فجثت على قدميها وقبلت يده قائلة: «ما أشد الشبه بينك وبين القيصر إسكندر الأول».

والتقى به القائد بتروف فحياه التحية العسكرية وقال: «أرجو لك الراحة والهناء يا صاحب الجلالة».

فمن هو ذلك المتشرد الذي يدعي أولئك الناس أنه شديد الشبه بالإمبراطور الميت إلى حد أنهم يدعونه: «يا صاحب الجلالة»؟

هو فيدور كوسميتش، راهب متعبد كما يدعي، خرج من الدير وجعل يطوف في أنحاء روسيا داعياً شعبها إلى التمسك بتعاليم الدين لاكتساب الجنة في الآخرة.

ورددت الألسنة – وما أطولها أيضاً في روسيا – أن الإمبراطور لم يمت وأنه اعتزل الحياة راضياً مختاراً، وأن الجثة التي نقلت إلى بطرسبرج ودفنت في أضرحة القياصرة هي جثة جندي روسي مات في تجانروج في اليوم الذي أشاعوا فيه خبر موت القيصر.

وارتفعت أصوات هنا وهناك طالبة من الإمبراطور نيقولا الأول – شقيق القيصر الميت الحي – أن يعلن الحقيقة على الناس وينبش الضريح ويفتح النعش.

لكن الإمبراطور رفض إجابتهم إلى طلبهم وأصدر بياناً صرح فيه بأن أخاه قد مات ودفن وأنه لن يسمح لنفسه بانتهاك حرمة القبور.

وذهب بعضهم إلى البارونة دي كرودنر فقالت: «إن فيدور رجل صالح من الأخيار الذين فتحت أمامهم أبواب السماء. وإذا كان الإمبراطور إسكندر الأول قد مات فإن روحه لا تزال حية باقية في جسم فيدور!».

ولما ألحوا عليها في الطلب والسؤال رفعت يديها إلى السماء صائحة: «في قصور بطرسبرج غوامض كثيرة، وفي قلعة القديسين بطرس وبولس سر رهيب!».

وأوشك تصريح البارونة أن يؤدي إلى فتنة في روسيا القيصرية لو لم تسرع الأسرة المالكة إلى تحويل الرأي العام إلى حروب جديدة وأعمال عامة مفيدة.

***

مر قرن كامل على ذلك اليوم الذي مات فيه القيصر دون أن يموت، ودفن دون أن يدفن، والسر الهائل لا يزال باقياً على ما كان عليه، وأبناء هذا القرن لا يعلمون من الحقيقة أكثر مما كان يعلم أبناء القرن الماضي.

لكن روسيا اليوم ليست روسيا الأمس. فقد توالت عليها الثورات والإحن فدكت معالم الأنظمة السابقة الواحد بعد الآخر. وراح أولئك الذين استحلوا المحرمات جميعها يستحلون نبش القبور وانتهاك حرمة الأموات.

فتح الشيوعيون أضرحة القياصرة ونهبوا ما كان فيها من تحف ونقود وجواهر.

ووصل بهم المطاف إلى ضريح القيصر إسكندر الأول، فحطموا بلاطه وألواحه وفتحوا النعش الرهيب، وإذا به خاو لا جثة فيه ولا مال.

وظنوا أنهم بذلك قد هتكوا الحجاب عن السر الدفين. لكن السر قد ازداد غموضاً، ويحق للعالم اليوم أن يتساءل كما تساءل من قبل: «أين الإمبراطور الميت الحي؟ ومن هو فيدور المتشرد؟ وكيف مات؟ وأين يرقد رقاده الأخير؟».

الغرام المقيم

خرج الأرشيدوق جان سلفاتور، أو جان أورث كما كانوا يسمونه، من آل هابسبورج النمساويين، كعادته كل يوم إلى الصيد والقنص. لكنه عاد في المساء خالي الخريطة من الطيور والعصافير، وراح يطوف في شوارع العاصمة النمساوية «فيينا» الجميلة، باحثاً عن رفيق يقضي معه السهرة إلى ما بعد منتصف الليل.

وجد ضالته المنشودة وظل مع رفيقه «أدولف سترنبرج» إلى الساعة الخامسة صباحاً، يتحدث عن شعوره نحو أسرته، وضجره من الحياة، ورغبته الصادقة في الابتعاد عن ضوضاء المدن، وقضاء بقية حياته في عزلة تامة وخلوة نائية.

عبثاً حاول الصديق الوفي أن يدخل على نفس الأمير اليائس بعض الرجاء، وأن يظهر له الحياة من ناحيتها الحلوة الجذابة. فإن ذلك الشريف النبيل الذي كان يملك ثروة طائلة، ويمت إلى أشرف الأسر المالكة في أوروبا، ويستطيع أن يجلب السعادة إليه صاغرة راضية، ذلك العظيم الشجاع الجميل الفتي، الأرشيدوق جان سلفاتور دي هابسبورج، ابن عم الإمبراطور فرانز جوزيف القابض على صولجان النمسا والمجر، ذلك الرجل الذي كان في مقدوره أن يعيش عيشة بذخ وهناء، كان أبعد الناس عن الرغبة في الحياة، وأكثرهم تشاؤماً وأشدهم وجوماً وكآبة!

كان عاشقاً مغرماً.

وذلك الغرام المقيم الذي دب إلى قلبه واستولى عليه وملك قياده، ذلك الغرام الذي حاول الأمير عبثاً أن يغالبه وينتزعه من صدره، ذلك الغرام هو سبب كآبته ووجومه، وهو أساس ذلك السر الذي نتحدث عنه اليوم، والذي لا يزال وسوف يظل من الأسرار المبهمة الغامضة، التي لن يتوصل المؤرخون والبحاثون إلى رفع الستار عنها وتمزيق الحجاب عن حقيقتها.

أحب الأرشيدوق جان سلفاتور فتاة من بنات الشعب تدعى «ميلي ستوبل»

وهي نمساوية مثله من سكان فيينا، وكان الأمير قد التقى بها للمرة الأولى في حفلة ساهرة، فصعق لساعته وشعر أن هذه الفتاة ستلعب في حياته دوراً هامًّا، وأنها ستقود خطواته في الأيام المقبلة.

وكان ما توقعه الأمير العاشق.

فقد أحب الفتاة الجميلة حباً جمّاً، حباً أنساه في كثير من الأحيان واجبه نحو أسرته ومركزه ومقامه، حباً جعل من ابن الأشراف رجلاً عاديًّا، لا يختلف في شيء عن غيره من الرجال الذين لا يجري في عروقهم دم النبلاء والملوك.

وما بلغ خبر غرامه أفراد الأسرة المالكة وعلى الخصوص الإمبراطور فرانز جوزيف، حتى ثار ثائرهم وانقضت صواعق غضبهم على المارق الذي لم يرع للأسرة العريقة حرمة، ولم يحفظ لنفسه كرامة، فراح يضع قلبه النبيل على قدمي فتاة حقيرة من بنات الشعب.

وقامت في صدر الشاب العاشق ثورة نفسية هائلة، وتلاطمت في ذلك الصدر الضيق أمواج العواطف المتباينة المتناقضة: التقاليد تدعوه إلى انتزاع الغرام من قلبه، والحب يدعوه إلى نبذ التقاليد والإصغاء إلى صيحات الطبيعة.

وتغلب الحب على التقاليد، أو بعبارة أخرى على «الواجب» كما كان أهله يسمون تلك التقاليد.

وغنى الأرشيدوق العاشق مع معشوقته أنشودة الغرام تامة كاملة، يعزفانها على أوتار قلبيهما المفعمين حباً، في ذلك القصر البعيد، الذي اختاره الأمير النمساوي في وسط الجبال مأوى لحبيبته وعشّاً لغرامه.

واشتدت نقمة الأسرة المالكة عليه. واشتد في آن واحد تعلق الشعب به.

وأشاع بعضهم أن الإمبراطور فرانز جوزيف يسعى للتخلص من ذلك الأمير الجموح الذي لطخ اسم الأسرة وشعارها وانطلق يحاكي الدهماء والرعاع في سيرتهم وسلوكهم.

وفي تلك الليلة التي قضاها الأرشيدوق جان سلفاتور مع صديقه أدولف سترنبرج في حانات فينا، قال له بصوت عميق ينم على هياج نفسي شديد:

– لن يترك لي ذلك العاهل القاسي الفؤاد سبيلاً للراحة والهناء. فلا بد لي من الرحيل لأنني قطعت الرجاء!

***

في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٩ وقعت في النمسا تلك الحادثة التي لا تزال ظروفها مجهولة وتفاصيلها مبهمة، والتي تعرف في التاريخ بمأساة مايرلنج.

فقد وجد الناس في غرفة واحدة جثتين هامدتين: جثة الأرشيدوق رودولف ولي عهد النمسا والمجر، بجانب جثة امرأة تدعى ماري فستيرا كانت عشيقته.

وذهب الناس في تعليل هذه المأساة كل مذهب. ولا يزال الباحثون والمؤرخون إلى اليوم يملؤون الصحف والمجلات في تمحيص الحادث الدموي، الذي راح ضحيته أمير نبيل وفتاة جميلة.

وقيل: إن للأمبراطور فرانز جوزيف يداً في ذلك، وإن شطراً من المسؤولية يقع على كاهله.

وبينما الناس يتناقلون خبر تلك الفاجعة الهائلة ويضربون أخماساً بأسداس في تعليلها، إذا بنبأ آخر يطير من أحد القصور النمساوية ويتجاوبه الصدى في كل ناحية من أنحاء النمسا:

لقد اختفى الأرشيدوق جان سلفاتور دي هابسبورج واختفت معه ميلي ستوبل ابنة الشعب الفاتنة.

واختلط الخبران. وامتزج نبأ انتحار ولي العهد بعد أن قتل حبيبته، بنبأ اختفاء الأمير جان سلفاتور مع حبيبته.

***

إلى أين ذهب الهاربان؟

وهل فرّا حقيقة من ذلك القصر الذي رآهما الناس يدخلانه ولكنهم لم يروهما يخرجان منه، أم أن الأيدي الأثيمة قد وصلت إليهما في مقرهما المنيع واعتدت على حياتهما وأخفت جثتيهما؟

إشاعات تناقلتها الألسنة. لكن الحقيقة ظلت مجهولة من الجميع.

وظل الناس يتساءلون: أين الأمير جان سلفاتور وأين عشيقته؟

عبثاً حاولوا أن يجدوا في القصر أثراً يدلهم على شيء. فإن القصر بقي محتفظاً بسره كما يحتفظ القبر بعظامه.

***

مرت الأعوام وتلتها أعوام، وقامت في أوروبا حروب قلبت كيان الدول رأساً على عقب.

وانهارت عروش واندثرت دول وتشتتت في الشرق والغرب أسر كانت بالأمس مالكة.

ونزل الإمبراطور الشيخ فرانز جوزيف إلى القبر محني الظهر رازحاً تحت أعباء السنين والمصائب والويلات.

وانقشعت الغيوم بعد أن وضعت الحرب العظمى أوزارها. فإذا بالإمبراطورية الكبيرة المترامية الأطراف - إمبرطورية النمسا والمجر - تتمزق وتتحطم وتقوم على أنقاضها دول ودويلات.

حينئذ ارتفع في الفضاء صوت جاء من بعيد، من العالم الجديد، صوت رجل فرنسي يدعي مسيو دي كريسي، وصاح بالناس قائلاً: «إنني أعرف مقر الأرشيدوق جان سلفاتور النمساوي من آل هابسبورج، الذي يبحث الناس عنه منذ سنة ١٨٨٩ دون أن يقفوا له على أثر. فمن منكم يريد أن يراه؟».

لم يجبه أحد لأن الحوادث التي تتابعت منذ ذلك اليوم قد أنست الناس ذلك الحادث التافه: أمير يختفي مع حبيبته!

وماذا يقول مسيو دي كريسي الفرنسي؟

إنه يدعي أن الأمير النمساوي لا يزال على قيد الحياة، وأنه يسكن في جمهورية كولومبيا بأمريكا الجنوبية، في قصر شيده على ساحل البحر مع المرأة التي أحبها ثم تزوجها: ميلي ستوبل التي كانت جميلة وفاتنة وساحرة.

ويقول أيضاً إن الأمير الشيخ لا يزال محتفظاً بغرامه المقيم، ذلك الغرام الذي تغلب على التقاليد والعادات والواجبات، وحمل الأرشيدوق جان سلفاتور على الرحيل عن وطنه بعد وقوع مأساة مايرلنج بأيام معدودة.

لنصدق مسيو دي كريسي الفرنسي، ولنبعث على أجنحة الرياح إلى ذلك القصر البعيد، على ساحل البحر في كولومبيا الأمريكية، تحيتنا إلى الشيخ العاشق الذي عرف كيف يعيش هنيئاً سعيداً مع حبيبته، في مأمن من شرور هذا العالم ومن كيد الكائدين ومكر الماكرين!

الجارية زليفة

في سنة ١٨١٠ للميلاد – الموافقة سنة ١٢٢٥ هجرية، أرسل الباب العالي يطلب من محمد علي باشا والي مصر أن يجرد حملة عسكرية لغزو الجزيرة العربية، وإخضاع الوهابيين الثائرين على الدولة العلية، والانتقام من زعيمهم الأمير سعود، البطل المقدام والقائد المحنك، الذي هزم الجيوش العثمانية التي سيرها السلطان لمحاربته، وبسط سلطانه على الصحراء وجعل يهدد بادية الشام.

فكر محمد علي باشا مليًا في الأمر ورأى نفسه في مأزق حرج وموقف يتطلب الحذر والتريث.

إن هو رفض ما يطلبه السلطان منه، ففي هذا الرفض من الخطر ما فيه. وقبول الدعوة إلى محاربة الوهابيين معناه ترك القطر المصري تحت رحمة المماليك الذين يتحينون الفرصة للإيقاع بمحمد علي وأسرته والعودة إلى سابق عهدهم في وادي النيل.

وعزم محمد علي باشا بعد التفكير الطويل وبعد المداولة مع أبنائه على التخلص من المماليك وضربهم الضربة القاضية، ثم إجابة السلطان إلى طلبه وتنفيذ أوامره.

وفي اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ دعا محمد علي باشا بكوات المماليك إلى قلعة القاهرة، لحضور الحفلة التي يقيمها طوسون باشا قبيل رحيله على رأس الجيش المصري إلى الحجاز.

ووقعت في ذلك اليوم مذبحة المماليك الهائلة، التي لم ينج فيها من البكوات المدعوين – وكان عددهم أربعمائة وسبعين رجلاً – غير واحد فقط تمكن من الفرار على ظهر جواده الذي قفز به من فوق السور إلى خارج القلعة.

حينذاك فقط أمن محمد علي باشا شر المماليك، واطمأن على ملكه، وخلا له الجو في مصر لتأسيس الدولة المستقلة التي كان يحلم بتأسيسها منذ اليوم الذي وطئت

قدماه أرض وادي النيل.

وبعد أيام من ذلك الحادث التاريخي، خرج محمد علي باشا من قصره في شبرا، وجعل يطوف في أنحاء القاهرة متفقداً قلاعها مشرفاً على الاستعدادات الحربية التي أمر بها، سائلاً باحثاً مستفحصاً.

وعاد في مساء ذلك اليوم إلى قصره تعباً في حاجة إلى الراحة، وقد تأكد أن كل شيء في القاهرة يسير على ما يريد ويروم.

وعندما وصل إلى قصره وجلس في حجرته، مثُل أمامه حاجب من حجابه الأمناء. وبعد أن حياه بالانحناء إلى الأرض قال:

- إن الجارية زليخة يا مولاي مشرفة على الموت. وقد طلبت إلينا أن نحمل إليك رغبتها الأخيرة، فهي تريد أن ترى سيدها وتقبل يده قبل أن تفارقها الحياة.

وكان محمد علي باشا يعطف على تلك الجارية عطفاً شديداً، ويسأل دائماً عنها، ويبعث في طلبها من وقت إلى آخر، لكي يعلم منها إذا كانت في حاجة إلى شيء.

من هي زليخة التي ينظر إليها سيد مصر هذه النظرة والتي يهمه أمرها إلى هذا الحد؟

هي امرأة في الأربعين من العمر، سمراء اللون حادة البصر طويلة القامة عذبة الصوت جميلة جذابة..

جاءت إلى قصر محمد علي باشا قبل ذلك الوقت بسنوات ووقفت على مقربة من الباب تنتظر قدومه. وعندما أقبل بموكبه أرادت أن تتقدم منه فزجرها الجندي الواقف هناك للحراسة وأبعدها عن المكان.

لكن الوالي رآها من بعيد، ورأى الجندي يسيء معاملتها فأمر أن يتركوها وشأنها، وطلب إليها أن تفضي إليه بشكواها إذا كانت قد جاءت إليه شاكية.

فألقت المرأة بنفسها على قدميه وبكت بكاء مرًّا، وقالت: إن الأقدار تعاكسها وإنها تجد نفسها في هذا العالم وحيدة لا نصير لها ولا صديق ولا معين، فجاءت

إلى محمد علي باشا ورجاؤها الوحيد أن يرضى بأن يكون لها صديقاً ونصيراً ومعيناً.

لم تطلعه على أكثر من ذلك، ولم تخبره من هي ولا من أين أتت، ولماذا يئست من الحياة ومن الناس؟ فاكتفى محمد علي باشا بتلك الكلمات القليلة التي فاهت بها المرأة الغريبة. وأمر بأن يفسح لها مكان في القصر فتقيم فيه معززة مكرمة.

ومنذ ذلك الوقت أقامت «زليخة» في قصر شبرا. وجعل محمد علي باشا يغمرها بعطفه والتفاته كأن شعوراً خفيًّا ينبئه بأن تلك الجارية إنما هي ضحية من ضحايا الظلم والجور والاستبداد، وأنها ما لجأت إليه إلا هرباً من خطر داهم وعدو مجهول، وما علم بعد ذلك من أمرها غير شيء واحد، وهو أنها ابنة رجل مصري من الصعيد وأن أمها سودانية.

وجاء ذلك اليوم الذي علم فيه محمد علي باشا أن زليخة قد أشرفت على الموت، وأنها ترغب في رؤيته قبل أن تغادر هذا العالم إلى العالم الآخر. فأسرع إلى الحجرة التي تنام فيها...

وسمع منها القصة الآتية:

- كان أبي يدعى «عمار السيوطي» وهو أحد رجال «البرديسي» وجندي من جنود المماليك، حارب في صفوفهم وقتل في إحدى المواقع الحربية بعد موت أمي بسنتين، فتركني في هذا العالم وحيدة معدمة.

«ولما علم البرديسي بأمري أحضرني إليه، وبعد أن أقمت عنده بضعة أيام أرسلني إلى «مراد بك» الذي ضمني إلى جواريه في قصره.

«ولم تطل إقامتي عند مراد بك أكثر مما طالت عند البرديسي. فقد أرسلني ذلك الرجل القاسي الفؤاد إلى مدينة عكاء، هدية منه إلى واليها أحمد الجزار مع قافلة حملت إليه كثيراً من النفائس.

«وكنت في قصر الجزار في عكاء عندما غزا الإفرنج هذه البلاد ومشى قائدهم بونابرت على رأس جيش عظيم لفتح ذلك الحصن المنيع وطرد الجزار من ولايته.

وقد مرت علينا جميعاً في ذلك الوقت أيام رهيبة ذقنا فيها الأمرين، وقاسينا من ويلات الحرب وأهوالها ما لم يقاسه كثيرون.

«ثم رحل جيش بونابرت عن المدينة بعد أن فشل في الاستيلاء عليها. وعادت الأمور إلى حالتها السابقة والمياه إلى مجاريها، إلى أن حدث ذات يوم في القصر حادث أسفر عن فاجعة دموية مؤلمة.

«كان عدد السراري في القصر يزيد على الثلاثين، وكنت أنا واحدة منهن. ولم يحدث مني قط ما يستحق التأنيب ويستوجب غضب سيد القصر وسيدي، أحمد باشا.

«لكن واحدة منا، واسمها زليخة مثلي، كانت تذنب مع أحد كبار الموظفين، وكنا جميعاً نعلم بعلاقاتها الأثيمة بذلك الموظف، لكننا حفظنا السر وتكتمنا، خوفاً من العقاب الذي قد ينزله الجزار بالجميع على السواء.

«لكن ذلك الرجل، الذي كان يحيط نفسه بالجواسيس والزبانية المخلصين، تمكن في النهاية من هتك الحجاب عن ذلك الأمر المعيب. وجعل يراقب زليخة بنفسه مراقبة شديدة، حتى فاجأها ذات يوم وهي تأخذ من خادم في القصر زهرة وردة بعث بها إليها عشيقها - وكان يقوم بوظيفة خازندار في قصر الوالي.

«وكانت تلك الوردة آخر ابتسامة من ابتسامات الحياة لتلك المرأة الشقية التعيسة. فقد نزل الجزار إلى حديقة القصر وأرسل في طلبها فأسرعت إليه، وكان إسراعها إلى الموت. فإن الجزار استل سيفه وقطع رأسها بضربة واحدة. ثم نادى جماعة من «الهوارة» الذين كانوا في خدمته وأمرهم بأن ينزلوا السراري جميعاً إلى الحديقة الواحدة بعد الأخرى ويقطعوا رؤوسهن أمامه، حتى يأمرهم بالكف عن ذلك.

«كان الجزار نمراً في صورة إنسان، دائم التعطش إلى الدماء، يروي ظمأه منها في الصباح فيعاوده التعطش إليها في المساء. وقد صدع الهوارة في ذلك اليوم بأمره وأتوا بالسراري إجابة لطلبه. وجعلوا يقطعون رؤوسهن على مرأى منه وهو يضحك

وطرب ويغمس يديه في الدماء المتدفقة من النحور...

«وكان أحد أولئك الجنود يعرفني، وهو مصري يا مولاي من أبناء دمياط، فأبلغني الخبر ومهد لي سبيل الفرار وأخرجني من القصر خفية بعد أن زودني بالماء والطعام، وطلب أن أهرب من المدينة وأعود إلى مصر إذا استطعت.

«فعملت بإشارته وغادرت القصر بعد أن علمت منه أن الهوارة قد ذبحوا عشرين امرأة من السراري، وأن الجزار لا يزال يطلب المزيد.

«ولا أحدثك يا مولاي عما قاسيته بعد فراري من أهوال وآلام. فقد قطعت المسافة بين عكاء ومصر مشياً على قدميَّ. وبلغ الجزار خبر فراري فأطلق في أثري جماعة من زبانيته لم يتمكنوا من العثور عليّ بالرغم من أنني التقيت بهم وعرفتهم.

«وفي اليوم الذي رأيتني فيه على باب قصرك، كنت قد قضيت في هذه البلاد سنوات عديدة، تارة أخدم في المنازل، وتارة أتسول في الطرقات، دون أن ألاقي من الناس شيئاً غير الظلم والطمع والاستبداد. وقد أنقذتني من العذاب يا مولاي.. وإذا كنت الآن أشعر بالحياة تنسل من جسمي فإني أرحل عن هذا العالم سعيدة جداً؛ لأنك قد انتصرت على أعدائك، وأبدت المماليك الذين عاثوا في هذه الديار فساداً، وأردت أن أطلعك على سر حياتي فلم تبخل عليَّ بتحقيق هذه الرغبة.

«فليحقق الله رغباتك وأمانيك، ويكلل بالنجاح أعمالك ومساعيك، ويكتب النصر لك ولأبنائك من بعدك!»

***

هذا ما قالته زليخة لمحمد علي باشا قبل موتها في اليوم الثاني عشر من شهر مارس سنة ١٨١١ في قصر شبرا بضواحي القاهرة.

الجارية الأرمنية

أكتوبر سنة ١٩١٨:

جنود الحلفاء يجتاحون فلسطين ويجتازون حدود سورية، والأمير فيصل بن الحسين يهاجم مسيرة الأتراك بجموعه المختلطة، وهي أشبه بالعصابات المسلحة منها بالجيش النظامي، والدروز يخرجون من عزلتهم وينحدرون من معاقلهم وينقضون كالصواعق على فلول المنهزمين.

أسراب من العقبان الخاطفة تطارد أفواجاً من الخشاش الطريدة الهائمة!

والجرحى كثيرون يفدون من كل ناحية وصوب، ينشدون العناية وقد ضاقت بهم الملاجئ والمستشفيات.

كنا في «العقبة» وكان مئات من الجرحى والأسرى والمنكوبين ينتظرون الباخرة التي أعدت لنقلهم من تلك البقعة الحارة الجرداء إلى وادي النيل المبارك إلى القاهرة المحروسة المضيافة.

أقبلت الباخرة تتهادى فوق مياه الخليج وتشق عبابه، فاتجهت إليها النواظر وخفقت لمقدمها القلوب، لكنه فرَح ما لبث أن زال وأمَل سرعان ما أخلى مكانه لليأس والخيبة.

ألقت الباخرة مرساها، ونزل إلى البر ربانها، وأبلغ أولياء الأمر أن باخرته معدة لشحن البضائع لا لنقل الركاب، وأنها صغيرة ضيقة، وأن ليس بوسعه أن يقبل منا أكثر من مائة راكب تدعو الضرورة القصوى إلى ترحيلهم.

لكننا صعدنا إليها أكثر من مائتين بين ضابط وجندي وأسير ومنكوب وجريح. وتراكمنا في جوفها وعلى ظهرها بين أكياس الدقيق وبراميل الزيت وأكداس الحبال.

وأفسح الأصحاء الأقوياء مكاناً للعجزة الضعفاء، وقامت بنا الباخرة - وتدعى «أريتوزا» - تزحف ببطء وتتمايل كالعرجاء ذات اليمين وذات اليسار.

وجعلنا نضرع إلى الله أن يلطف بنا، وأن يحرس الأريتوزا فتصل بنا سليمة سالمة

إلى السويس، إلى دار الأمان!

خرجت الباخرة من خليج العقبة وجاوزت «رأس محمد» وحاولت عبثاً مقاومة التيار وقهره لكي تلجأ إلى خليج السويس، فقد هبت هناك زوبعة شديدة وانطبق علينا وصف الشاعر فكنا: «كريشة في مهب الريح!».

وتصاعد أنين الجرحى وقد انتقضت عليهم جراحهم. وارتفع صياح المنكوبين ممزوجاً بولولة المنكوبات، إذ إن الجنس اللطيف كان له من يمثله في تلك «الشحنة» البشرية.

كان معنا عشرون شخصاً من الأرمن، فروا من بلادهم أو من سورية، وقذفت بهم الأقدار إلى بادية الشام، حيث التقطهم قوم من أنصار فيصل وجاؤوا بهم إلى معسكر العرب، فصدرت الأوامر بنقلهم إلى مصر وضمهم إلى من سبقهم إليها من ضحايا الحرب والهاربين من جحيمها.

وكان نصف عددهم من النساء الثكالى والزوجات المترملات.

جعلنا نواسي أولئك المساكين، ونعيد الأمل إلى نفوسهم والشجاعة إلى قلوبهم، إلى أن هدأت الرياح وسكن العجاج وزال الخطر فانبسطت الأسارير وابتسمت الثغور.

ولفتت نظرنا على الخصوص بين أولئك الأرمن امرأة في العقد السادس من عمرها، عليها مسحة النبل وأمارات النجابة، يحيطها أبناء جلدتها بأنواع الإكرام والإجلال، ولا يترددون في تضحية راحتهم في سبيل راحتها.

دفعنا التطفل وحب الاطلاع إلى سؤالهم، فعرفنا من أمر تلك المرأة العجب العجاب.

إنها الآن فقيرة معدمة، لا أمل لها في الحياة ولا رجاء. لكنها كانت فيما مضى صاحبة ثروة وجاه. وعاشت عيشة ترف ودلال وتقريب من السلطان عبد الحميد يوم كان عبد الحميد في أوج عزه وسطوته.

***

هي أرمنية من أسرة نزحت من القوقاز واستوطنت أرضروم. كان أبوها من كبار تجار الأغنام، ماتت زوجته وهي في الثلاثين من عمرها،وظل يسهر وحده على ابنتيه

ويعتني بتربيتها.

وكثيراً ما كان الأب «أفديكيان» يضطر إلى التنقل في المزارع والجبال، فتبقى الفتاتان في البيت في حراسة خادمة أمينة عجوز.

وكان الأرمن في ذلك العهد تحت رحمة الأتراك، لا تمر سنة دون أن تنزل بهم أنواع الاضطهاد والإرهاق.

حدث مرة أن وقع شقاق بين تاجر الأغنام وبعض الموظفين، فاضطر المسكين إلى الرحيل عن بلدته مع عائلته، خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه، وهرباً من انتقام خصومه وبطشهم به وبعائلته.

لكنه فر من شر للوقوع في أسوأ منه، فقد هاجمه في الطريق لصوص قطاع الطرق وذبحوه مع الخادمة وحملوا الفتاتين إلى مغاورهم ثم ألقوهما بين يدي «أفرام باشا» تاجر الرقيق مقابل مبلغ من المال.

وباعهما أفرام باشا في الأستانة، فاشتراهما القائد العسكري «شاكر أحمد باشا» وقدمها هدية لمولاه السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه الهمايوني في سنة ١٨٨٥ .

***

كان عبد الحميد سريع الانفعال كثير الشكوى، يرتاب في كل حركة تبدو من حاشيته.

لكنه كان كبقية الرجال ذا قلب حساس يخفق للجمال، وصدر تختلج فيه لواعج الغرام.

ولم ينج ذلك السلطان القابض على زمام مملكته المترامية الأطراف من الوقوع تحت سلطان الحب الذي لا مرد لإرادته، فانقاد لنداء القلب صاغراً ذليلاً، ومال عنقه تحت ذلك النير القاهر، كما انقادت الشعوب ومالت أعناقها تحت نير عبد الحميد صاغرة ذليلة.

أحب سجين «يلديز» صغرى الفتاتين. وعلق بها فؤاده وتضاعف بسببها أرقه. وأحس بأن هذه الأرمنية الحسناء سوف تلعب في حياته دوراً غير الذي تلعبه المئات من السراري والجواري، اللواتي كانت تعج بهن قصوره.

أرسل في طلبها ذات يوم. فدخلت عليه في مخدعه مع «جعفر أغا» رئيس الخصيان. وكان عند السلطان أحد كتبة أسراره الضابط علي فؤاد بك.

نظر إليها مقبلة فالتفت إلى الضابط وقال:

- دعني وانصرف يا علي بك. لكنني أسمح لك بأن تمتع عينيك بالنظر إلى هذا الوجه المنير. فتذكر في المستقبل أنك رأيت أجمل سرية في قصر عبد الحميد.

نهض الضابط وحدق بصره وهو خارج إلى تلك الفاتنة التي فاق جمالها كل جمال وسما بهاؤها على كل بهاء. وياليته لم يرفع الطرف ولم ينظر!

فقد أخذ لساعته بذلك الحسن المفرط، وشعر بأن سهماً حاداً قد انطلق من مقلة الفتاة وأصاب فؤاده في الصميم.

كان قلب الضابط خلياً فخرج من لدن السلطان عاشقاً!

وجلست الحسناء أمام عبد الحميد وعلى موطئ قدميه، فجعل يداعب بشرتها الناصعة البياض، ويعبث بجدائل شعرها، ويبثها مكنونات صدره ويكشف لها عن أعماقه:

- إنك تشبهين «نعمت» الفتاة التركية التي كنت أحبها وأغدق عليها النعم، والتي قصفت يد المنون غصن شبابها رطباً، فدعيني أطلق عليك هذا الاسم إحياء لذكرى الماضي.
- افعل ما يحلو لك يا مولاي. فأنت السيد المطاع.
- إذن يا نعمت، أريد أن تأتيني كل ليلة في مثل هذه الساعة، فترسلي شعاع الفرح في ظلام حياتي، وتغريد البلابل في السكون الذي يكتنفني.
- سأجيء يا مولاي.
- ليس لديك رجاء تفضين به إليَّ؟
- لدي رجاء لو استجابه مولاي لجعلني سعيدة شاكرة. ولحفظت له من أجله أجمل الذكرى.

- أي رجاء هذا؟

- تقيم في هذا القصر أخت ليس لي سواها وليس لها سواي. فهل يأمر مولاي بأن تعامل بين النساء كما أعامل أنا بينهن؟

- أجل.

وتناولت الفتاة طرف الرداء السلطاني وقبلته. فأخذ العاشق المتيم رأسها بين يديه وقبلها من شفتيها الورديتين.

***

وظلت «نعمت» مدة من الزمن معبودة سلطان البرين وخاقان البحرين، وقد جمعت هي وأختها من الجواهر والحلي أكداساً.

لكنهما كانتا تحنان إلى وطنهما. إلى الربوع التي لعبتا فيها صغيرتين، إلى الجبال التي طالما طافتا في وعرها وهضابها، إلى أبناء قومهما الذين لا يعرفون من أمرهما شيئاً والذين كانوا يعتقدون أنهما قد أصبحتا في عالم الأموات.

كاشفت عشيقة السلطان عشيقها ذات ليلة برغبتها في السفر إلى ذلك الوطن. وأقسمت له أنها ستعود إلى يلديز دون أن تفكر في الهرب.

لكنه رفض السماح لها بقضاء رغبتها. وداخلته الريبة في سلوكها وجعل منذ ذلك الوقت يضيق عليها الخناق ويضاعف المراقبة ويبث الأعين في أثرها.

وكانت الفتاة قد زجرت الضابط علي فؤاد بك الذي راودها مراراً عن نفسها، وأعرضت عنه وأنبته على جرأته وهددته برفع شكواها إلى السلطان إن لم يرجع عن غيه ويكف عن ملاحقتها.

فحمل الضابط موجدة على المسكينة وأضمر لها الشر والعدوان. وبات يرقب الفرصة للإيقاع بها والانتقام منها.

وهل من عدو أشد خطراً من العاشق إذا ما رام انتقاماً بعد الصد والهجران؟

علم الضابط علي فؤاد بأن «نعمت» تقدمت إلى عبد الحميد برجاء وأنه لم يجبها إليه. فعول على اقتناص هذا الظرف الملائم وضرب الحسناء المعتصمة ضربة تصيبها

في صميم حياتها.

واغتنم فرصة وجوده في اليوم التالي في حضرة مولاه، فاستأذن في الكلام مدعياً أن لديه أمراً يرغب في إطلاع السلطان عليه، وأن ذلك الأمر يتعلق بسلامة الدولة والجالس على العرش.

أذن له عبد الحميد بالكلام فطفق الضابط المفتري يقص على مولاه خبر مؤامرة وهمية يدبرها قوم من الأرمن لاغتياله، ثم ختم حديثه قائلاً:

- لقد وقع اختيار أعداء جلالتكم على امرأة من نساء القصر لتنفيذ خطتهم الجهنمية والإقدام على فعلتهم الشنعاء.

فارتعد عبد الحميد وقال:

- أية امرأة هذه؟

ونظر إلى كاتب أسراره لاهثاً مستفهماً، فسكت الرجل كأنه يتردد في إماطة اللثام عن سر هائل. لكن السلطان انتهره صائحاً:

- آمرك أن تتكلم يا علي وأن تفضي إليَّ بكل ما تعلمه.

فقال الواشي:

- إن المرأة التي أقصدها هي أحب السراري إلى جلالتكم.

- أفصِح!

- هي نعمت الأرمنية!

فدوى صوت عبد الحميد في أرجاء القاعة منادياً:

- جعفر أغا.. جعفر أغا...

***

ودخلت الأرمنيتان على السلطان في تلك الليلة، إجابة لطلبه، وكان جالساً على مقعد من المخمل الأسود، أمام نافذة تطل على حديقة القصر، مسنداً ذراعه اليمنى على وسادة خضراء، باسطاً ذراعه اليسرى على حافة النافذة.

نظر إلى المرأتين نظرة طويلة كثيرة المعاني، ثم أشار إلى رئيس الخصيان بأن يبتعد ويقف بالباب حارساً.

والتفت إلى نعمت وأختها وقال:

- نعمت، لدي رجاء خاص أرجو أن تجيبيني إليه في الحال، وبعد ذلك أعدك بأن أطلق سراحك من هذا القصر، وأبعث بك إلى حيث تشائين.

- مرني يا مولاي فأنا رهينة إشارتك!

- ارقصي!

فنظرت إليه نعمت حيرى مدهوشة.

- قلت لك: ارقصي، لقد قيل لي إنكما - أنت وأختك - تحسنان الرقص وبي رغبة شديدة إلى رؤيتكما ترقصان.

فتبادلت الأختان النظرات، وما كانتا يوماً من الأيام تحسنان الرقص كما ادعى السلطان، ولكن لابد لهما إجابته إلى طلبه.

فرقصت نعمت، وفعلت أختها مثلها فرقصت، وجعل عبد الحميد ينظر إليهما هادئاً صامتاً هدوء أبي الهول وصمته، ثم قال لنعمت:

- أما قيل لك يا نعمت إنني أحسن إطلاق النار أيما إحسان، وإنني لا أخطئ الرمي برصاص المسدس؟

فزادت دهشة نعمت لهذا السؤال وأجابت:

- قيل لي ذلك يا مولاي، وقيل لي أيضاً أنك تكتب اسمك الكريم على لوحة خشبية برصاص المسدس.

- لقد صدقوا. ضعي إذاً إصبعك على ثديك الأيسر، ولا تتوقفي عن الرقص.. أجل.. هكذا.. ألا تشعرين الآن بخفقان قلبك وراء هذا الثدي؟.. ما قولك إذا أوقفت هذا الخفقان برصاصة مسدس؟

فارتعدت المسكينة خوفاً وضغطت بيدها على ثديها.

ودوى في القاعة صوت طلق ناري...

وسقطت نعمت على الأرض جثة هامدة، وقد اخترقت الرصاصة قلبها ووضعت حدًّا لخفقانه.. ونفذ عبد الحميد وعيده.

وألقيت الجثة في البوسفور بعد أن أثقل عنقها بحجر. ونسي السلطان أو تناسى تلك الساعات الحلوة التي قضاها بين ذراعي نعمت الأرمنية الحسناء التي أحبها، والتي أرادها لمجرد وشاية كاذبة، مضحياً بغرامه في سبيل حياته، وما كانت المسكينة تفكر يوماً في الاعتداء على تلك الحياة!

***

وظلت أختها الكبيرة في القصر منبوذة مهملة.

وظل الضابط علي فؤاد في القصر أيضاً، وقد نال حظوة في عيني مولاه الذي اعتقد فيه الأمانة والإخلاص.

لكن الضمير المؤنب لم يرحم ذلك الواشي الذي بات يتألم ويندم على ما بدر منه.

ولم يطق صبراً على كتمان السر دفيناً في صدره، فباح لأخت ضحيته بكل شيء.. وطلب إليها أن تأمره بعمل يقدم عليه تكفيراً عن ذنبه وإساءته.

فقالت له الأخت الحزينة:

– أنقذني من الجحيم الذي أعيش فيه هنا. وليسامحك الله ويغفر لك ما فات!

وبواسطة ذلك العاشق الذي دفعه حبه إلى الإجرام، تمكنت الأسيرة من الفرار من يلديز والعودة إلى بلادها حاملة جواهرها وحليها وكتمت أمرها أعواماً عديدة، إلى أن حدث ذلك الانقلاب السياسي الذي انهار على أثره عرش عبد الحميد، فأطلعت القوم على سرها، فأنزلوها في نفوسهم منزلة الإكرام والإجلال، وقضت أيامها في بحبوحة من العيش.

ودارت الأيام دورتها.

ونكبت المرأة من جديد في أثناء الحرب العظمى كما نكبت من قبل في ريعان شبابها، فهامت على وجهها في البراري والقفار.

وهي التي التقطها العربان في بادية الشام وحملوها مع رفاقها المنكوبين الهاربين إلى العقبة، فعلمنا قصتها على ظهر الباخرة «أريتوزا» في عرض البحر، في طريقنا إلى السويس، في أكتوبر سنة ١٩١٨.

الرؤيا

- أرجو أن تغلق الأبواب يا دولة الوزير وأن تمنع الناس عنها. إن ما أود الإفضاء به إليك من الخطورة بمكان.

- صدقت يا سيدي ما دام الأمر كذلك. إن للجدران آذاناً تسمع وعيوناً ترى. ثم إننا في قصر يلديز، ينبغي لنا ألا ننسى ذلك ونهض «أبو الهدى» من مجلسه مسرعاً نحو باب الحجرة، وبعد أن أفهم الحارس أن الدخول غير مباح لأحد، عاد إلى محدثه الضابط النمساوي «ستيسل» وقال:

- لقد خلا لنا المكان يا سيدي. تكلم.

- جئتك في حاجة لابد لك من قضائها: إنني أحمل إليك رسالة من صاحب الجلالة الإمبراطور، يلح فيها عليك بالقبول ويرضى بالشروط التي تمليها علينا.

- حسن جدًّا. إن إمبراطور النمسا صديق قديم، تربطني به أواصر المحبة والإخلاص، ويعز عليَّ أن أرفض له طلباً. ولكن، هل قبلتم الثمن الذي وضعته للخدمة التي تطلبونها مني؟

- قبلنا.

- أين المرأة إذن؟

- في الفندق.

- إليَّ بها. واحمل معك غداً التحويل بالمبلغ على أحد المصارف الإنجليزية.

- سأفعل.

وهكذا تم الاتفاق بين رسول النمساويين وأبي الهدى - نديم عبد الحميد الثاني ونجيه ومؤتمنه- على إدخال السيدة «سفوي متز» في حرم الرجل، والادعاء أمام

السلطان أنها الزوجة الجديدة التي وقع عليها اختيار أبي الهدى.

***

كانت سوفي متز هذه راقصة متهتكة، طافت في بيوت الدعارة وأماكن الفجور في النمسا، تعرض محاسنها للبيع والشراء كما تعرض السلع في الأسواق.

ساعدها الحظ وابتسمت لها الأقدار. فتقربت من رجال البلاط النمساوي، الذين توسموا فيها المكر والخداع، فقرروا فيما بينهم إرسالها إلى يلديز للتجسس على السلطان وحاشيته.

وكانت النمسا في ذلك العهد تنافس روسيا في التوسع من ناحية البلقان، وبسط النفوذ على أطراف السلطنة العثمانية، محاولة أن تستميل إليها الجالس على عرش آل عثمان، عبد الحميد الثاني «الرجل المريض» كما كانوا يسمونه.

لكن ذلك الرجل المريض كان على جانب عظيم من الفطنة والذكاء والدهاء، يدرك ما ينصبه له أعداؤه من حبائل ويكيدونه من مكائد، فيلعب بهم جميعاً ويضحك منهم جميعاً.

حاولوا كثيراً أن يسيطروا عليه بواسطة النساء، لكن السلطان لم يكن من أولئك الرجال الذين يستسلمون استسلاماً أعمى لنشوة الغرام ويسكرهم الحب بين أحضان الحسان. نعم إنه كان يميل إلى «الجنس اللطيف» ولكنه لم يكن زير نساء كما توهموا، بالرغم من أن قصوره كانت تغص بالسراري وتعج بالجواري.

كانت أعصابه تعبةوقواه منهوكة. وكان إذا ما أراد أن يذوق طعم الراحة يعمد إلى العقاقير والجواهر المنبهة، يقاوم بواسطتها عبء السنين ووطأة الأمراض.

لكنه كان ذا اعتقاد راسخ بالخرافات، مولعاً إلى حد بعيد باستطلاع الغيب وقراءة الكف، مؤمناً بنبوءات السحرةوالمنجمين، دائم الرغبة في محادثة الأرواح وسؤالها عما يكنه له المستقبل في طياته وما يسطره له القدر في صفحاته.

وكان «أبو الهدى» يذكي في نفس السلطان هذه الرغبة ويزيد ذلك الاعتقاد

رسوخاً، ويثبت له بمختلف البراهين والأساليب أن للأحلام علاقة بالحياة، وأن أرواح الأبرار والأشرار تحوم ليلاً في مساكن الأحياء من الناس، وتفضي إليهم بما يرغبون في معرفته من ماض وحاضر وآتٍ.

وذهب أبو الهدى إلى أبعد من ذلك لجعل السلطان يصنع بيديه تماثيل البعض من أعدائه ورسومهم، لكي يستحضر له الأرواح في دجى الليل ويقدم لها تلك الرسوم والتماثيل فتنتقم من أصحابها في النهار وتثأر للسلطان منهم على اعتدائهم وخيانتهم.

ذلك هو الرجل الذي وقع عليه اختيار النمساويين لكي يكون لهم عوناً على عبد الحميد.

ولما كانت المرأة سوفي متز من اللواتي نبغن في تفسير الأحلام وقراءة الكف، فقد اختارها القوم أيضاً لكي تعاون نديم السلطان في مهمته.

وكان يؤهلها لذلك على الخصوص إتقانها اللغة التركية ووقوفها على دخائل القصور لأنها كانت تتردد عليه وتقيم بين نسائه.

تم الاتفاق إذن بين الضابط ستيسل وأبي الهدى.

وفي اليوم التالي، جيء إلى الرجل بالمرأة وبالتحويل على أحد المصارف الإنجليزية.

***

جلس أبو الهدى يوماً كعادته، يقص على السلطان حوادث الأمس وينقل إليه تقارير الزبانية والجواسيس.

وبعد أن انتهى من هذه المهمة اليومية، ولفق لسيده ما شاء من الأوهام والوشايات، سكت هنيهة ثم استطرد قائلاً:

- والآن يا مولاي دعني أفضي إليك بمفاجأة طريفة أعددتها لسيدي وولي نعمتي منذ أسابيع.

فرفع السلطان رأسه وبرقت عيناه وسأل:

- أية مفاجأة هذه يا صديقي الأمين؟

- لقد تزوجت منذ أكثر من شهر امرأة شركسية هي على اتصال دائم بعالم الأرواح، تستحضر منها من تشاء وتحادث من تشاء. وقد جعلتها تقوم على مسمع ومرأى مني بتجارب أدهشتني كما ستدهشك يا مولاي. فهل تسمح أن آتيك بها؟

- أجل. إننا الآن في أشد الحاجة إلى معرفة ما يخبئه لنا الغد، أريد أن أعلم هل كانت التدابير التي اتخذناها كافية للقضاء على الحركة الثورية التي يقوم بها رجال تركيا الفتاة؟ إنني لا أثق كثيراً بذلك العهد الذي قطعوه على أنفسهم باحترام شخصي وعدم الاسترسال في دس الدسائس ونشر الدعوى التي يعملون لها. ينبغي أن أضربهم الضربة القاضية قبل أن يتمكنوا من استمالة الجيش إليهم. عليّ بالمرأة في الحال.

ومثلت سوفي مثز - التي أطلق عليها أبو الهدى اسم «زينب التركية» - في حضرة سلطان البرين وخاقان البحرين.

وظلت أياماً تفسر له الأحلام وتستطلع الغيب وتستحضر الأرواح.

وكانت الأحلام كلها تنبئ بالفرج العاجل، بينما الغيب ينحسر عن حوادث جليلة جميعها في مصلحة العرش، والأرواح تبشر السلطان بالنصر القريب والفوز المبين.

عادت الطمأنينة إلى نفس «الرجل المريض» واعتقد أن زمام الأمور في قبضته، وأنه سيهزم أعداءه في داخل البلاد كما هزمهم في خارجها.

ومرت الأيام والثائرون يعدون عدتهم في الخفاء،وينشرون دعوتهم ومبادئهم في طول السلطنة وعرضها، داعين أصحاب الرأي وأباة الضيم إلى هدم معقل

الظلم والاستبداد، ورفع لواء الرقي والحرية، والسير بالشعب في مضمار الحياة الحقة.

والسلطان غافل عما يجري وراء أسوار قصره، وجاهل بالحفرة التي يحفرها له خصومه.

لكن أبا الهدى أدرك أن الساعة العصيبة قد دنت، وأن ذلك البريق الذي يلمع في الأفق سيتلوه هزيم الرعد وقصف الصاعقة.

أسرع إلى زوجته الزائفة وأطلعها على مخاوفه، وطلب إليها أن تعمد إلى آخر سهم في جعبتها فترشقه، على أمل أن يصيب الهدف ويغنم الاثنان ما يرغبان فيه: التجاء السلطان إلى دولة النمسا ووضع نفسه تحت حمايتها..

***

وفي الثالث من شهر إبريل سنة ١٩٠٨ قبيل الظهر، دخل أبو الهدى على سيده مصطحباً معه زوجته. وقصت الزوجة على السلطان الرؤيا التي هبطت عليها من السماء في الليلة السابقة:

- رأيت يا صاحب الجلالة نسرين أسودين يحلقان في الفضاء. هبط واحد منهما واستقر على قبة القصر اليمنى. وتبعه الآخر واستقر على القبة اليسرى. ثم ضم الاثنان أجنحتهما وأرسلا في الفضاء صيحات مزعجة. حينذاك رأيتك خارجاً من القصر وقد ألقيت على كتفيك الطيلسان الأرجواني. وبسط النسران أجنحتهما من جديد وطارا إليك. وبعد أن رفرفا لحظة فوق رأسك أخذاك بين الأجنحة التي انضمت عليك كما تنضم أذرع الأمهات على البنين. لقد عرفت النسرين يا مولاي: هما النسران النمساويان!

سكت عبد الحميد واكفهر وجهه. ثم سأل:

- وما معنى هذه الرؤيا؟

- إنه يجب عليك يا صاحب الجلالة أن تطلب من صديقك الإمبراطور فرانز جوزيف النمساوي أن يحمي شخصك المحبوب ويمنع أعداءك الثائرين عليك من تنفيذ خططهم والاعتداء على عرشك.

***

وفي اليوم الرابع من ذلك الشهر، قالت المرأة للسلطان: إن الرؤيا قد لازمتها طول ليلها.

وفي اليوم الخامس أيضاً...

وفي اليوم السادس والسابع كذلك...

وفي اليوم الثامن نهض السلطان عبد الحميد من نومه مذعوراً وأرسل في طلب أبي الهدى وزوجته....

ولما مثلا بين يديه صاح بصوت متهدج:

- الرؤيا!.... الرؤيا!.... لقد رأيت النسرين وأخذاني بين أجنحتهما كما فعلا أمامك يا امرأة....

- الأرواح الساهرة عليك يا مولاي تملي إرادتها....

- إذن... لنكتب إلى صديقي الإمبراطور...

هكذا أثرت النمساوية في مخيلة السلطان، فجعلته يرى في نومه الحلم الذي ادعت أنه عاودها أربع مرات، فاعتقد أن الأرواح التي تعطف عليه وتحرس حياته تشير عليه بالالتجاء إلى النمسا وطلب حمايتها...

فتناول ورقة وسطر عليها بيده برقية إلى الإمبراطور فرانز جوزيف...

وظل يتردد يوماً كاملاً قبل إرسالها...

لكنه في اليوم العاشر من شهر إبريل، قرر أن يسلمها إلى مكتب البرق بعد أن وضعها بالأرقام المتفق عليها.

وأرسلت البرقية....

وصادرها الموظفون المنتمون إلى حزب تركيا الفتاة وحلوا أرقامها وفهموا معناها، وحملوها إلى أنور باشا ونيازي بك وصحبهما....

وحلت الكارثة بالسلطان وأتباعه!

فقد كان الأحرار من الأتراك قد اكتفوا بنتائج الثورة الأولى في سنة ١٩٠٧ وقبلوا أن يظل عبد الحميد جالساً على عرش آل عثمان.. ولكن تلك البرقية أزاحت النقاب عن مقاصد السلطان ونياته، فخاف زعماء الثورة على أنفسهم وعلى الدستور الذي انتزعوا الموافقة عليه من عبد الحميد انتزاعاً، فقرروا إسقاط الطاغية والتخلص منه إلى الأبد.

وفي اليوم الحادي عشر من إبريل سنة ١٩٠٨ كانت ثورة الجيش العثماني في الأستانة.

وفي السابع والعشرين من ذلك الشهر، دخل الجيش قصور يلريز وأرغم عبد الحميد على التنازل عن العرش.

***

أما سوفي متز الشركسية الكاذبة والدجالة الجاسوسة، فقد توارت عن الأنظار منذ ذلك اليوم واختفت آثارها، ولم يعلم أحد ما حل بها.

وقد ظل أبو الهدى نفسه يجهل مقرها، فمات قبل أن يصل إليه نبأ عن المرأة التي كانت شريكته في المؤامرة على السلطان وتقويض عرش بني عثمان.

نديم آغا العاشق

لا يدهشك هذا العنوان أيها القارئ، ولا تهز كتفيك وترسم على شفتيك ابتسامة السخرية، فالأغا الذي أحدثك عنه كان عاشقاً، بالرغم من أنه لم يكن غير نصف رجل!

شاءت الأقدار أن يولد ذلك المسكين تحت برج النحس وأن تعبس السعادة في وجهه وتوليه ظهرها، وشاءت إرادة أسياد قساة غلاظ أن يحرم وهو في مهده من جرثومة الرجولية ومنبع النشاط، ولكن أيدهشك أن يكون لأولئك الخصيان المساكين عروق تنبض وقلوب تخفق وصدور تختلج بالغرام كغيرها من الصدور؟

كان الخصي «نديم آغا» يخلص لمولاه الخدمة ويتفانى في سبيل مرضاته، ويعبد بعد الله السلطان عبد الحميد الثاني، ولي نعمته وصاحب الفضل عليه.

وكان عبد الحميد يحبه ويخصه بعنايته ويوصي به خادمه، ووصيفه جعفر آغا خيراً على الدوام.

وكان كلما جلس إلى المائدة ينادي نديم أغا ويعهد إليه بخدمته وتقديم الماء إليه.

لكن الأمر الذي كان الخصي يعدّه نعمة تفوق النعم جميعها، وتعطفاً تضمحل أمامه الخيرات والهدايا، هو اعتماد السلطان عليه في حمل إرادته السنية كل ليلة إلى دائرة الحرم ودعوة الحسناء التي يقع عليها اختيار عبد الحميد إلى قضاء الليل في حجرة المولى!

وكان نديم آغا يقوم بتلك المهمة الدقيقة خير قيام دون أن تفارق الابتسامة ثغره الأفلج، فتحيط به الجواري والسراري كلما رأينه مقبلاً: هذه تداعبه وتلك تدغدغه، وهو يتنقل بينهن كالديك بين الدجاج. لكنه ديك يفتقر إلى أظهر مزايا الديوك فلا خطر منه عليهن!

وبالرغم من ذلك كله، فإن الديك المسكين «المهيض الجناح» كان عاشقاً مغرماً!

***

في إحدى ليالي شتاء ١٨٩٧ وقع نظره للمرة الأولى على الفتاة «زبرجد» الغادة السوداء التي قادها إلى قصر يلديز تاجر الرقيق «عثمان بك الكردي» فأنقد ثمنها مائة من القطع الذهبية الرنانة الصفراء!

لم تكن الجواري الزنجيات يساوين في ذلك الوقت ثمناً باهظاً كهذا، إذإن النخاس تاجر الرقيق أفرام باشا كان يجلب منهن العشرات تلو العشرات. لكن تلك الجارية السوداء التي كانت تحمل اسماً ينطبق على المسمى انطباقاً محكماً، كانت في تقاطيع وجهها وتناسب أعضاء جسمها ولمعان عينيها ونعومة بشرتها وامتشاق قامتها آية من آيات الجمال الكامل الجذاب، فنالت حظوة في عيني عبد الحميد، وأمر خصيانه بأن يحلوها في حرمه محلًّا ممتازاً، وأن يرعوها بعنايتهم دون سواها من النساء.

شعر نديم آغا في بادئ الأمر بنوع من الفخر عندما رأى تلك الزنجية - بنت جلدته - تعامل بين ساكنات الحرم من سود وبيض معاملة خاصة. فصار يعطف عليها ويسابق زملاءه في خدمتها.

لكن ذلك العطف ما لبث أن استحال غراماً!

إن الحب يلج القلوب جميعها، رفيعها ووضيعها، أبيضها وأسودها وعندما يشد رب الغرام نباله إلى قوسه ويرشق بها الصدور، فإنه لا يفرق بين الرجال، ولا يميز بين الأسياد والعبيد، والكاملين «والناقصين!».

أحب إذن نديم آغا الجارية السوداء وكاشفها بغرامه وجعل يبثها ما في أعماق فؤاده الجريح من لوعة وحسرة، فقابلت الفتاة حبه بالمثل، وقصت عليه قصتها وكيف أن النخاسين الجناة أغاروا برجالهم على عشيرتها، هناك في غابات زنجبار، وساقوها سبية أسيرة، بعد أن قتلوا أهلها، وشتتوا شمل قبيلتها، وأحرقوا أكواخ قريتها.

وجدت العبدة الذليلة في ذلك العبد الذليل أخاً في البؤس وشريكاً في الشقاء. وتوسمت فيه الأمانة والإخلاص والحب الصادق. فاتخذته لها مؤتمناً ونجيًّا، وتوثقت بين الاثنين العلاقات إلى حد صار معه العاشق يغار على معشوقته من الجميع، الرجال والنساء، ومن سيده ومولاه السلطان نفسه!

دخل يوماً على دائرة الحرم ونادى صديقته وقال لها بصوت متهدج والعبرات تخنقه:

- أمرني البادشاه أن أبلغك اليوم إرادته، فهو يرغب إليك في أن تغتسلي بالطيب والعطور، وأن ترتدي ذلك الثوب الأخضر الذي أمر لك بصنعه منذ أيام، وتوافيه في حجرته عند منتصف الليل.

قال هذا وألقى بنفسه على مقعد وجعل يبكي وينتحب.

فدنت منه الفتاة وسألته مندهشة:

- وما الداعي إلى هذه الدموع يا نديم. ليست هذه المرة الأولى التي يدعوني السلطان فيها إلى موافاته في حجرته؟

فنهض الآغا العاشق وقد صعد الدم إلى رأسه، وجذب معشوقته إليه بقسوة وعنف، وضمها إلى صدره، ثم ألصق شفتيه بسعير الغرام، وطبع على ذلك الثغر المحبوب قبلة حارة - أحر من أشعة الشمس اللاذعة في صحارى المجاهل الإفريقية. ثم صاح بها وقد تغلب فيه الحيوان على الإنسان:

- لن تذهبي الليلة إليه! أوثر ألف مرة أن يحل بي العقاب، أن أجلد، أن أسجن في غياهب الأقبية، أن يلقى بي في الماء إلى حيتان البوسفور، وقد أثقل عنقي بالحديد والرصاص، نعم أوثر أن يصعدوني إلى المشنقة، أن يقتلوني شر قتلة، على أن أتخيلك بعد اليوم في أحضان رجل آخر، يتمتع بجمالك ويعبث بجسدك!

ذعرت الفتاة وتولاها رعب شديد. فحاولت أن تهدئ من حدته وأن تطفئ نار ثورانه، لكنها لم تفلح، إذ إن العاشق المسكين كان أقرب إلى المجنون منه إلى العاقل!

إنه يحب. لكن حبه مريض كسيح. يريد أن ينعم في حبه بما ينعم به الآخرون في حبهم. لكنه لا يستطيع. والطبيعة ترفض الأخذ بيده، لكي يجتاز الطريق ويصل إلى نهايته، فيقطف ثمرة الغرام كبقية العاشقين.

التفاحة أمامه، على مقربة منه، على متناول من يده، يشم رائحتها، يتلذذ بملامستها.. ولا أسنان له تمكنه من التهامها.

قام بينه وبين الجارية جدل عنيف: هي تريد أن تصدع لإرادة المولى وهو يحضها على العصيان.

وجاءت النساء على صوت الضوضاء، وأقبل أحد رفاق نديم يستفسر ما الخبر.

ووقعت الفضيحة التي طالما سعت الفتاة زبرجد إلى اجتنابها.

أدرك الخصي الآخر أن في الأمر سرًّا، وأن في استغلال الموقف منفعة وفائدة. فتوجه إلى الباب عازماً على الخروج لحمل الخبر إلى مولاه السلطان.

لكن الجارية فطنت إلى حيلته، فأسرعت إليه وأرادت أن تحول بينه وبين الباب. فاعتقد نديم آغا أنها تغتنم الفرصة للهرب منه والذهاب إلى حيث تدعوها الإرادة السنية، فتناول مسدسه وأطلق منه رصاصة على معشوقته.

لكن يده المرتجفة أخطأت المرمى، فسقط الزنجي الآخر صريعاً وقد اخترقت الرصاصة صدره وأصابت منه مقتلاً.

وعلا الصياح والعويل، فأفاق نديم آغا من سكرة هياجه واتضحت له حقيقة موقفه وفظاعة عمله.

وأدرك أنه هالك لا محالة!

***

كان السلطان عبد الحميد قد نزع عنه ثوبه الأسود ولبس قميصه الأبيض وجلس في سريره، وجعل يصغي إلى قراءة التقارير التي جاء يطلعه عليها رئيس الجواسيس، وتحت وسادته زجاجة يستنشق منها من آن إلى آخر.

الإصغاء إلى التقارير، واستنشاق المنبهات: هذا ما كان يصنعه عبد الحميد في انتظار الحسناء التي اختارها لكي تحمل شعاعاً إلى حجرته المظلمة، وتريه ثغراً باسماً بعد أن رأى طول نهاره وجوهاً عابسة!

- أعد قراءة هذه الجملة.

فأطاع رئيس الجواسيس وأعاد القراءة:

«دخلنا على أحمد بك.. فوجدناه جالساً يداعب قطته وبجانبه زوجته تضاحكه. فأطلقنا عليه رصاصتين...».

لكن الرجل توقف فجأة عن القراءة ونهض مذعوراً. ذلك لأن الباب قد فتح بشدة، ودخل الحجرة مارد أسود وهو يصيح والمسدس بيده:

- مر بقتلي يا مولاي فقد خنتك وأذنبت!

وخر الرجل على وجهه وتناول حذاء السلطان وجعل يقبله ويردد:

- مر بقتلي يا مولاي.. مر بقتلي!

لكن مولاه كان قد اختفى!

ضغط عبد الحميد على زر وراء سريره، ففتح باب سري وخرج منه سلطان البرين وخاقان البحرين، مرتعشاً هارباً من وجه ذلك الزنجي الذي اقتحم حجرة نومه شاهراً مسدسه!

***

قبض على الآغا العاشق. وأصدر المفتي فتواه بوجوب قتله فعلقوه على المشنقة في أحد الميادين العامة.

وفي اليوم التالي، أمر السلطان باستجواب النساء للاطلاع على دخائل ذلك السر ومعرفة حقيقة ما جرى في دائرة الحرم وكيف قتل نديم آغا زميله...

لكنهم لم يجدوا في غرفة الفتاة غير جثتها هامدة.

لم تذق المسكينة لذة الغرام في هذا العالم، ولم تشأ أن يفرق الموت بينها وبين حبيبها التعس، فشنقت نفسها في غرفتها، ولحقت به إلى العالم الآخر، حيث تلتقي الروحان بعيداً عن أعين المزاحمين والحساد!

بهرام آغا الجعفري

كان يقيم في مصر، سنة ١٩٢٥، رجل شركسي يدعى محمد سليمان آغا - ولست أدري من أين ولا كيف أتى بلقب «آغا» هذا. وكنت أعرف الرجل معرفة جيدة، وأجلس معه طويلاً، أصغي إلى ما كان يقصه عليّ من حوادث الأستانة وأسرار القصور؛ لأنه قضى في عاصمة السلطنة العثمانية القديمة مدة طويلة.

وحدث أن التقيت به ذات يوم، فألفيته فرحاً ضاحكاً، يطفح البشر من وجهه. ودعاني إلى الجلوس فجلست معه في أحد مقاهي القاهرة، حيث ابتدرني قائلاً:

- إن هذا اليوم من الأيام السعيدة في حياتي، وسأشرب اليوم نخب الأقدار التي تنتقم للمظلومين دون علمهم.

أثار كلام الرجل رغبتي في الاستزادة من الحديث فسألته:

- وما الذي يجعل هذا اليوم سعيداً بين الأيام، ويحملك على أن تشرب نخب الأقدار وعهدي بها عمياء لا تبصر، وصماء لا تسمع، ولا تخدم أحداً من الناس أو تسيء إليه من حكمة وتعقل؟

- أنت مخطئ! فالأقدار تسير شؤون العالم وتسيطر عليها، والبرهان على ذلك أن «بهرام آغا» قد مات خنقاً!

فرأرأت عيني وحملقت فيه سائلاً من جديد:

- ومن هو المرحوم بهرام آغا الذي مات خنقاً؟

- بهرام آغا الجعفري. ألم تسمع باسمه؟

- مطلقاً.

- أنت إذن لا تعرف شيئاً عن حوادث يلديز في عهد السلطان عبد الحميد.

- أنا أجهل تلك الحوادث جهلاً مطبقاً. قص عليّ قصة بهرام آغا، جزاك الله كل خير.

فقص عليَّ محمد سليمان آغا الشركسي القصة الآتية قال:

- كانت تتولى إدارة الحرم السلطاني هيئة من الآغوات اسمها دائرة «آغوات دار السعادة» أسسها السلطان العظيم سليمان القانوني. وكان رئيس أولئك الآغوات يحمل لقب «بيوك آغا» ومعناه «الآغا الأكبر» ومركزه بين رجال القصر رفيع جداً، إذ إنه يجيء بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام.

«وكان «بيوك آغا» في عهد السلطان عبد الحميد، وفي الوقت الذي وقعت فيه حوادث هذه القصة، يدعى بهرام آغا الجعفري.

«ويجدر بي أن أنبهك هنا إلى أن بهرام آغا هذا كان رئيس أغوات الأميرة جميلة سلطان، أخت عبد الحميد، وكانت تحبه وتثق به، وهي التي طلبت إلى أخيها السلطان أن يعينه «بيوك آغا» فأجابها إلى طلبها ورفع بهرام الجعفري إلى ذلك المقام الرفيع. فصار الآغا اللعين، وهو ماكر دساس متزلف، يتمتع بنفوذ هائل لا يضارعه في القصر السلطاني نفوذ. وأصبح رضا السلطان موقوفاً على رضاه. وجعل أصحاب الغايات وأرباب المصالح يقصدون إلى ذلك الخصي الأسود لقضاء مصالحهم وغاياتهم. ورأى المقربون من القصر ذلك الرجل «الناقص» يسير أحياناً شؤون السلطنة حسب رغباته وأهوائه، يعزل من هذا المنصب من يريد، ويعين في تلك الوظيفة من يشاء....

«واتسع سلطانه إلى حد أن السلطان نفسه أوجس خيفة وداخله الحسد منه. فكاشف أخته بالأمر، وأفضى إليها برغبته في نقل بهرام آغا من تلك الوظيفة إلى أخرى أقل منها شأناً. فأوعزت إليه بأن يضع الآغا على رأس دائرة الحرم السلطاني، لكي يدير حركة التجسس على النساء، ويراقب سلوكهن وحركاتهن وسكناتهن.

«ومنذ ذلك الوقت، جعل بهرام آغا يرفع إلى مولاه التقارير اليومية عن كل صغيرة وكبيرة تجري في داخل «الحراملك»، ليس فقط في قصور السلطان، بل أيضاً في قصور أمراء الأسرة المالكة جميعاً، وذلك بواسطة رؤساء الأغوات، الذين كان يغدق عليهم

بهرام النعم والعطايا، مقابل أن يوافوه بأسرار القصور».

***

وهنا سكت محدثي، وخيل إليَّ أن أفكاره تاهت في عالم آخر.

ولكن صبري ما لبث أن نفد، فصحت به:

- لقد حدثتني عن السلطان وحرم السلطان وأغوات السلطان، ولكنني لم أدر بعد علاقتك بذلك كله ولا أي شأن لك برئيس آغوات القصر، الذي تدعوه بهرام آغا.

فمر محمد سليمان بيده على جبينه، وأفرغ في فمه قدحاً من الماء المثلوج واستطرد قائلاً:

- كان لي أخت تدعى بهيجة، بارعة الجمال، فاتكة اللحظ، طويلة القامة.

«وتلك الأخت التي كنت أحبها حبًا جمًّا اختفت ذات يوم من البيت، وعبثاً بحثنا عنها الشهور الطوال.

«وأخيراً علمنا أنها تقيم في قصر السلطان، وأن زبانيته قد اختطفوها من إحدى الحدائق العامة بإرشاد بهرام آغا اللعين.

«أختي، الحرة الطاهرة، تصبح بين مساء وصباح جارية في القصر السلطاني، يعبث بعفافها ذلك النمر البشري!

«أختي تُسرق من خدرها ولا سبيل إلى الاقتصاص من السارق.

«هجر الرقاد جفني منذ ذلك الوقت، وحرمت على نفسي الراحة ما لم أنقذ أختي المسكينة من ذلك الجحيم، وأعيدها إلى الهواء الطلق، إلى الحياة الحرة، ولو ملطخة بما لحقها من عار في تلك البؤرة التي يسمونها الحرم السلطاني.

«وبلغت مقصدي ومرامي بعد جهد وعناء...

«ولست في حاجة إلى أن أفضي إليك بالتفاصيل.

«يكفيك أن تعلم أنني تمكنت بمساعدة الآغوات وبفضل ما بذلته من مال، من إخراج أختي بهيجة من قصر السلطان... إلى قصر أخيه محمد رشاد.

«أدركت في بادئ الأمر أنهم سيبحثون عنها في بيتنا، فأردت أن أضلل الباحثين بأن أترك أختي الهاربة تختبئ في ملجأ أمين.

«وأي ملجأ أكثر أماناً لها من قصر محمد رشاد؟

«لكن المسكينة أخرجت من حبسها.. لكي تقذف بها الأقدار إلى حتفها وتواريها في قبرها.

«فقد بلغ السلطان خبر فرارها، فعهد إلى بهرام آغا رئيس الأغوات في أن يبحث عن المرأة التي يعود إليه الفضل في جلبها إلى القصر، ويعيدها إليه حية أو ميتة. وإلا أنزل به العقاب الشديد!

«خاف الآغا على حياته، وأطلق ثعالبه وصنائعه وعبيده في أثر الطريدة الشاردة.

«ولم يمض على ذلك اليوم أسبوع واحد حتى كان أمْر بهيجة قد انفضح وسرها قد انكشف.

«أعيدت بهيجة إلى قصر السلطان وقادها بهرام إلى القاعة المعروفة بحمام السلاطين.

«وذلك الحمام شيده السلطان سليمان القانوني من المرمر الإيطالي الأبيض والوردي، وكان الجالسون على عرش آل عثمان يختلفون إليه للاستحمام بين السراري والجواري منشدات راقصات.

«هناك وافاها السلطان ابن السلطان، السلطان الغازي عبد الحميد الثاني خان، الذي غادر قاعة الاستقبال ومنصة العرش، وجاء إلى ذلك الحمام لكي يرى بعينيه مقتل امرأة.

«هناك، أمام ذلك الرجل الغريب الأطوار انقض العبيد على بهيجة الضعيفة، وأخمدوا أنفاسها خنقاً بأصابعهم الغليظة وتركوها بين يدي سيدهم ومولاهم جثة هامدة!».

***

....

سكت محمد سليمان آغا من جديد. فعدت إلى سؤاله:

- وبهرام آغا؟

- لقد مات منذ أيام.. مات خنقاً كما ماتت أختي خنقاً!

- ومن قتله؟

- جارية فرت من قصر السلطان منذ سنوات وظلت حاقدة على ذلك الآغا لما لقيته منه من عذاب وإرهاق. وقد انتقمت الآن لنفسها ولأخواتها من نساء القصر. لذلك تراني اليوم فرحاً ضاحكاً: لقد مات بهرام آغا. والقاتل يقتل!

هذا ما قصه علي محمد سليمان آغا الشركسي. وقد رأيت أن هذا الحادث من خفايا القصور التي تستحق أن تذاع فأذعته.

زنجمان هانم

قال محدثي:

- إنك شديد الولع علي ما يظهر بحوادث التاريخ الخفية وبالوقائع التي كانت ولا تزال تجري وراء جدران الأسوار، والتي أراك تتناولها من وقت إلى آخر فتضعها في قالب قصصي. هل تريد أن أقص عليك حادثاً وقع لامرأة بارعة الجمال مع صاحب السمو الخديو السابق عباس حلمي باشا؟

فقلت:

- كيف لا أريد ذلك وأسرار القصور لا تزال إلى الآن تغريني بموضوعاتها الشائقة؟ فمن تكون زنجهان هانم وماذا حدث لها مع سمو الخديو السابق؟

***

«بين الشخصيات التي ظلت حقيقة أمرها سرًّا مبهماً، شخصية زنجهان هانم التي أحدثك عنها اليوم. ويجب أن أقول لك قبل كل شيء إن زنجهان هانم في نظري جاسوسة خدعت الخديو السابق عباس حلمي باشا كما خدعت سواه من الناس، وأنها كانت تعمل لحساب الجميع على السواء. وكل ما أعرفه عن أصلها ونشأتها أنها ابنة رجل جمعته أيام المدرسة بدرويش باشا أحد القواد الأتراك، وكان درويش باشا من أسرة كردية، معروفة بين الناس بأخلاقها الغليظة، وقد شاءت المصادفات أن يكون والد زنجهان هانم رفيقه في الحروب، أصيب الرجل برصاصة في إحدى معارك «القرم» وقبل أن يلفظ نفسه الأخير، أرسل في طلب درويش باشا وأوصاه بابنته خيراً، لأنها ستصبح يتيمة بعد وفاة أبيها، وكانت أمها قد ماتت قبل ذلك اليوم بأربعة أعوام. فاستولى درويش باشا على أموال الفتاة وما تركه لها والدها الغني من عقارات وأملاك شاسعة، وانتهى الأمر بأن رغب فيها زوجة له.

«هال الفتاة ما يطلبه منها ذلك الشيخ الهرم المتداعي الذي أصبح على حافة

القبر، بينما هي ترتع في ربيع عمرها، وتستقبل الحياة بثغرها الباسم وجسمها البض. ولكنها اضطرت إلى الإذعان ضناً بثروتها، وخوفاً من أن يتصرف برويش باشا قبل موته بما تركه والدها. وقالت في نفسها إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ تلك الثروة هي قبول ما يطلبه ذلك الشيخ الفاني. وبعد أيام أصبحت الفتاة الجميلة الحسناء زوجة لذلك القرد البشري.

«ولو أراد المؤرخون أن يبحثوا في زوايا التاريخ ويتطلعوا أسرار القصور لكي يدونوا في سجلاتهم أغرب ما حدث لزوجة في «ليلة الدخلة» لكان دخول درويش باشا بالفتاة زنجهان هانم أغرب ما يدونون! ولكنني لا أطيل الشرح في هذا الموضوع لأن تدوينه قد يعد في نظر البعض من «الأدب المكشوف» المبالغ فيه. فلنمر على ليلة الدخلة مر الكرام. ولكن يجب أن تعلم أن زنجهان هانم بقيت في قصر درويش باشا فتاة عذراء بعد زواجها، كما كانت من قبل.

«ومات درويش باشا، ولا أذكر لك كيف مات لأن الإشاعات حول موته كثيرة متباينة متناقضة. ويقولون إن لزنجهان هانم يداً في موت الرجل. ولكن دعنا أيضاً مما يقولون فإن الألسنة طويلة في كل بلد من بلدان الله، وسيبقى موت درويش باشا زوج زنجهان هانم سرّاً من أسرار القصور.

«ولعلك تتوق الآن إلى معرفة علاقة صاحب السمو الخديو السابق عباس حلمي باشا بزنجهان هانم الجميلة الفاتنة، بعد وفاة درويش باشا زوجها، فاعلم إذن أن الذي كان همزة وصل بين المرأة والخديو وواسطة تعارف بينهما، هو مصطفى الحصري من أصدقاء سموه ومن الذين كانوا يعملون لحسابه في الأستانة، في عهد المرحوم السلطان عبد الحميد الثاني.

«قامت في مصر في وقت من الأوقات ضجة هائلة حول الأوقاف والمحاكم الشرعية، عندما كان اللورد كرومر معتمداً لدولة بريطانيا العظمى في مصر. ورفعت إلى السلطان شكايات موجهة ضد الخديو، وذهب الناس في شكايتهم إلى الادعاء بأن

سموه يتصرف في أموال الأوقاف حسب أهوائه وأغراضه، فأراد السلطان أن يعرف الحقيقة من منبعها كما يقولون، وطلب من سمو الخديو عباس حلمي أن يبسط له الأمر كما هو. وسافر الخديو إلى الأستانة لهذا الغرض، وهناك اتصل بمصطفى الحصري ورغب إليه في أن يطلعه على حركات خصومه من المصريين والأتراك، فما كان من الحصري إلا أن أسرع في طلب زنجهان هانم، وكان الخديو قد عهد إليها من قبل في مراقبة أولئك الخصوم وموافاته بأخبارهم.

«وضرب الخديو موعداً لمقابلة المرأة في قصر بيك في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم شديد الحر. فمثلت المرأة بين يديه وأطلعته على ما دار في الخفاء بين السلطان وأبي الهدى الصيادي، وبين هذا الأخير وخصوم الخديو من المصريين. ومما قالته له إن السلطان عبد الحميد علم باجتماع الخديو بالسيد جمال الدين الأفغاني والسيد عبد الله نديم، في محل يدعى «الكاغدخانة» فاستاء من ذلك وأرسل في طلب أبي الهدي وعهد إليه في مراقبة الثلاثة معاً، فاغتنم أبو الهدى الفرصة السانحة وأطلع السلطان على ما قاله له السيد محمد توفيق البكري عن تدخل الخديو في شؤون الأوقاف، وغير ذلك مما يسيء إلى سمعة سموه ويحط من قدره في عين السلطان.

«وطفقت زنجهان هانم تتحدث إلى الخديو وتسرد له التفاصيل عن حوادث كان يجهلها. وما مضت على دخولها عليه في تلك القاعة في قصر بيك ساعة واحدة حتى كان الخديو عالماً بجميع الأسرار والحركات الخفية الموجهة ضده. فنهض من مكانه وفتح درج مكتبه وتناول منه هدية ثمينة قدمها بيده لتلك المرأة التي أسدت إليه خدمة لا أشك في أنه يذكرها إلى الآن!

وفي اليوم التالي، حظي الخديو بمقابلة السلطان عبد الحميد وعرف كيف يبسط قضيته على مسامعه، فخرج من لدنه غانماً فائزاً حائزاً رضاه.

«وإذا كان السلطان عبد الحميد قد تدخل في مصلحة الخديو ودافع عنه، فذلك عائد إلى براعة زنجهان هانم وتجسسها للخديو حيناً وعليه أحياناً، وإلى النعم التي

أغدقها عليها، وخصوصاً إلى ما كان يجري وراء جدران قصرها في الآستانة. فإن ذلك القصر الذي كانت زنجهان هانم تسكن فيه، والذي فاضت فيه أنفاس زوجها العجوز درويش باشا الكردي، كان مسرحاً بعد موت الرجل لمقابلات ومحادثات ومغازلات ودسائس ومكائد لا تعد ولا تحصى، وسوف تظل سرّاً من الأسرار وما أكثرها في ذلك العهد المملوء بالخيانات والأعمال الخفية المبهمة».

ابن الشركسية

في قصر «أورته كوي» بالأستانة العلية...

خرج السلطان وحيد الدين إلى شرفة تطل على الحدائق الغناء، وتنفس الصعداء بعد أن ضاقت أنفاسه في داخل ذلك القصر الذي استحال سجناً ممقوتاً.

١٩٢٣...

الوطنيون الأتراك يبتسم لهم الدهر عن ثغره، وتنعقد فوق رؤوسهم ألوية النصر، ويكتسحون بمبادئهم البلاد بعد أن طهروا أرضها من الأجنبي الغاصب.

والسلطان قلق مضطرب تساوره الهواجس وتكتنفه الهموم.

يخاف على حياته المهددة.

ويخاف على السلطنة أن تفلت منه.

وحيد الدين يمثل الرجعية والخمول والقنوط والاستسلام.

جلس السلطان وقد شعر بأن عرشه يتهدم، وأخذ رأسه بين يديه وأطلق العنان لأفكاره تسبح في عالم المخاوف والأحلام المزعجة.

وبينما هو على هذه الحال إذا بصوت رخيم يطرق أذنه، بل يداعبها.

كالنسيم. فرفع السلطان رأسه مجفلاً وقال:

- من هنا؟

- أنا يا مولاي. رأيتك وحيداً حزيناً كئيباً فجئت أطرح نفسي على قدميك وأبعث في نفسك - إذا استطعت - بارقة أمل ورجاء.

فبسط السلطان يده للمرأة الواقفة أمامه، وأخذ رأسها بين يديه وطبع على جبينها

قبلة ممزوجة بالعبرات.

هي «إقبال» الشركسية. أو بالحري «إقبال» التي تدعى أنها شركسية ولكنها في الحقيقة يونانية من بنات الجبال، قادها أحد تجار الرقيق إلى قصور السلاطين، وأدخلت كغيرها في حرم محمد السادس وظلت تقيم فيه، فشاهدت الانقلابات التي توالت على تركيا، وعطفت على وحيد الدين الذي نبذه الجميع ما عداها وأضمروا له الشر بينها كانت وما تزال تضمر له الخير.

ذلك لأنه أنقذ ولدها من الموت.

كان ذلك الولد في الثامنة من عمره. وحدث ذات يوم أن فاجأ السلطان أحد ضباط الحرس يعتدي عليه فيضربه الولد بقبضة يده ويقبض الضابط على عنقه ويهم بخنقه لو لم يفاجئه وحيد الدين وينقذ الفريسة من أيدي الجلاد.

وكان جميع من في القصر يعتقدون أن ذلك الولد ابن عامل من عمال الحدائق ويجهلون انتسابه إلى إقبال الشركسية.

لكنها أفشت الحقيقة للسلطان بعد أن أنقذ ولدها. غير أنها لم تبح له إلا بما أرادت أن تبوح به.

فأخذها تحت رعايته وصارت منذ ذلك الوقت تلازمه وتتفانى في خدمته.

وأحبها وحيد الدين. فكانت شعاعاً يضيء ظلام وحدته وعزلته.

***

جاءته ذلك اليوم وهي على غير عادتها قلقة مضطربة. ففطن السلطان إلى ذلك وطلب منها أن تبوح له بمكنونات صدرها وأن تطلعه على ما أخفت من أسرار حياتها. فقالت إقبال:

- ما جئت إليك الآن يا مولاي إلا لكي أبوح لك بكل شيء. ولكن على شرط واحد لابد من إجابتي إليه. أتعدني بذلك؟

- أجل أعدك.

- وهذا الشرط هو أن تدعني أرحل وولدي عن الأستانة ولن يسمع أحد شيئاً عنا بعد اليوم.

فانتفض وحيد الدين وقال:

- تريدين أن ترحلي وأنت الشخص الوحيد الذي أرتاح إلى مجالسته في هذا القصر حيث يحيط بي الأعداء من كل جانب؟

- لابد من ذلك يا مولاي: اسمع قصتي واحكم.

وبعد سكوت قصير مسحت فيه إقبال دمعة ترقرقت في عينها واستعادت فيه تذكارات ماضية مؤلمة، جعلت تلقي على السلطان مأساة حياتها. قالت:

- لا أطيل عليك الشرح فأسرد لك التفاصيل عن نشأتي في بلاد اليونان - أي في بلادي. لكنني أكتفي بإطلاعك على ما حدث لي بعد أن وقع عليَّ اختيار السلطان محمد السادس، لكي أكون بين نسائه المخيرات.

«إنك أدرى مني بعادات القصور وتقاليد آل عثمان. فقد حرّم على نساء الحريم أن يلدن أبناء إلا إذا كان يحملن لقب سلطانات القصر. ولم أكن أحمل ذلك اللقب لأن عدد من تخولهن التقاليد حمله كان مستوفياً.

«حدث مرة أن أقيمت في هذا القصر - قصر أورته كوي - مأدبة فاخرة دعي إليها عدد عظيم من الناس ودعيت إلى الرقص والغناء. فلبيت الأمر ورقصت وغنيت.

«وفي تلك المأدبة علم السلطان محمد السادس أن الحرب العظمى قد اندلعت نيرانها بين الدول؛ إذ إنه كان يجهل كل ما يجري خارج قصره.

«وبعد انصراف المدعوين استبقاني السلطان وقضيت ليلتي في مخدعه وكان ثملاً.

«ومرت الأيام والأسابيع والشهور. وكنت قد شعرت بأنني حامل وخفت على

الجنين أن تناله يد الأذى فأخفيت الأمر عن الجميع.

«لكن التستر كان صعباً. فاضطررت في النهاية أن أبوح بسري، وأصدر السلطان أمره بأن يقتل المولود في الحال.

«ذعرت لتلك الإرادة. وجعلت أفكر في طريقة أنقذ بها الطفل المسكين البريء. فاتفقت مع القابلة التي جاءت من المدينة بطفل ميت أحلته محل ولدي، وحملت ولدي إلى مكان أمين أخفته فيه.

«وظل السلطان معتقداً أن الطفل قد مات.

«أما أنا فكنت أرى ولدي سرّاً في بادئ الأمر عند البستاني الذي عهدنا إليه في تربيته والسهر عليه، حتى بلغ الثالثة من عمره. فادعى البستاني أنه ولده وصرت أراه جهراً وبلا خوف.

«فذلك الصبي يا مولاي الذي أنقذته القابلة من الهلاك منذ ثمانية أعوام، والذي أنقذته أنت من يد الضابط الذي أراد به سوءاً منذ بضعة أشهر، هو ابن السلطان محمد السادس، وفي عروقه تجري دماء بني عثمان. وإذا كنت أرجو منك أن تدعني أرحل بولدي فليس ذلك لأنني أرغب في الحرية، فسيان عندي البقاء أو الرحيل، بل من أجل الولد أطلب ذلك لكي أنقذ من الهلاك أميراً عثمانيًّا مجهولاً!»

***

سكنت المرأة بعد أن قصت على السلطان قصتها، فأشفق وحيد الدين عليها وقال بصوت متهدج:

- إقبال، إنني أشعر بدنو أجل السلطنة، فإنقاذ أمير من أمراء الأسرة المالكة واجب محتم. كان السلطان بالأمس يفتك بأفراد أسرته لكي يأمن شرهم. أما اليوم فقد تغيرت الأحوال وتبدلت الظروف: سترحلين بولدك يا إقبال.

***

وفي اليوم التالي، غادرت إقبال الشركسية قصر «أورته كوي» ورحلت عن

الأستانة بجواز سفر مزور يحمل اسم «مدام أيفانيا كريستو دولو وابنها الفتريس».

وبعد أسبوع واحد خلع مصطفى كمال السلطان وحيد الدين وأجلس الأمير عبدالمجيد على عرش آل عثمان المتزعزع.

ثم كان ما كان من إلغاء الخلافة والسلطنة وطرد عبدالمجيد وقيام الجمهورية على أنقاض الماضي.

***

وفي شهر مايو سنة ١٩٢٦ ورد على الخليفة عبدالمجيد المنفى كتاب من روسيا ففضه وقرأ فيه:

مات الأمير سليم ابن السلطان محمد علي قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره «والدته الحزينة»

ولم يعلم أحد ماذا حل بإقبال الشركسية.

الراهب العاشق

قرر الكولونيل فولكونسكي الروسي، ياور القيصر السابق، أن يدخل الدير في إحدى الرهبانيات بروما.

«الجرائد»

أفضى الكولونيل فولكونسكي برسالته السرية إلى القيادة العامة، وحمل منها الرد إلى مجلس الدوما في «بتروغراد» فغادر ميدان القتال وأسرع ينهب بمركبته المراحل نهباً، ولم يهدأ باله ويذق طعم الراحة إلا بعدما اجتاز السور المحيط بقصره، هناك، على شاطئ النهر في إحدى ضواحي العاصمة الروسية.

كانت الحرب العظمى في أشد أطوارها خطورة. وكانت الجيوش الألمانية الجرارة تتدفق على حدود روسيا كالسيول الجارفة، وقد ارتدت أمامها فرسان القوزاق واضطر جنود القيصر إلى حفر الخنادق أسوة بحلفائهم الفرنسيين والإنجليز.

وكان الكولونيل فولكونسكي من الضباط الروسيين البارزين، شهد له الأعداء أنفسهم بالحنكة والشجاعة، وكان القيصر نقولا الثاني يخاف عليه من بأسه وإقدامه، فاحتفظ به بعيداً عن خطوط النار، وألحقه بخدمته واتخذه ياوراً خاصًّا يرافقه في روحاته وغدواته.

وعندما كان مجلس الدوما يرغب في مخابرة القيادة العامة سرًّا، كان القيصر يطلب إليه أن يعهد في هذه المهمة إلى ياوره المخلص الأمين لكي يثق من قضائها على خير ما يرجى.

وكان الكولونيل عند حسن الظن به

أما اختياره ياوراً للقيصر، فقد جاء طبق مرامه، وموافقاً لرغبته، إذ أنه كان يحب، والمرأة التي كان يحبها لم تكن غريبة عن القصر.

نشأ فولكونسكي في كنف أبيه الشريف النبيل، واختلط من صغره بالأسرة المالكة، فكان من أبناء الأشراف المدللين المختارين، الذين يسمح لهم بأن يشاركوا أبناء القيصر في ألعابهم.

وتولدت بينه وبين إحدى بنات العاهل الروسي - الغراندوقة أناستازيا- منذ الطفولة، صداقة متينة نمت بنمو الصديقين، وتوثقت عراها بنضج عقليهما وحواسهما، وما أقبلت سن الشباب حتى كانت تلك الصداقة قد استحالت حبًّا قويًّا عميقاً، تملك منهما المشاعر واحتل الفؤادين.

وفطن القيصر إلى ذلك الغرام الناشئ، لكنه لم ير فيه غضاضة ولا ضيماً، فغض عنه الطرف وتركه حرًّا طليقاً.

أما القيصرة، فإنها لم تنظر إليه بعين الرضا والقبول، لأنها كانت تعد لابنتها اناستازيا زواجاً غير هذا، ولأن الداهية «راسبوتين» كان قد رسم لذلك الزواج خطة أخرى.

وما يريده راسبوتين لا تعارض فيه القيصرة!

ونشأ بسبب ذلك الحب البريء الطاهر خلاف عنيف بين القيصر والقيصرة، جعل الراهب المخيف يذكي سعيره لغاية في نفسه - وما أكثر الغايات في نفس ذلك الشيطان!

لكن فولسكونسكي لم يأبه لمعارضة القيصرة وصديقها راسبوتين، لأنه كان واثقاً من عطف القيصر، وواثقاً على الخصوص - وهنا بيت القصيد - من إخلاص محبوبته وتعلقها به.

وفي ذلك اليوم الذي عاد فيه من ميدان القتال إلى عاصمة الإمبراطورية، أسرع العاشق إلى القصر، ووضع على جبين الأميرة الجميلة قبلة أفرغ فيها ما تجمع في صدره مدة أسبوعين من شوق ولوعة!

***

وكان في القصر عاشق آخر، عاشق هادئ ساكن، عاشق صامت يكتم حبه في قلبه ويكظم عواطفه في صدره، ويخشى أن تخونه الظواهر، فيطفو على جبينه وفي عينيه وعلى شفتيه بعض ما يختلج بين جوانحه من عواطف هائجة متلاطمة.

ذلك العاشق الخائف المرتعش هو «جاكوبوفسكي» الملازم البسيط، الذي عهد إليه في مراقبة خدم الإسطبل، وألحق بخدمة الأميرة أناستازيا. يسهر على جوادها الخاص ويعتني به، لأن ابنة القيصر كانت شغوفة بركوب الخيل حاملة قصب السبق بين النساء الفارسات.

جاكوبوفسكي «السايس» يحب الأميرة الشريفة!

وأية غرابة في ذلك؟ أما دونت التواريخ في صفحاتها حوادث حب ووقائع غرام، كان أبطالها خليطاً من أبناء القصور وأبناء الأكواخ؟

رحل جاكوبوفسكي إلى الروسيا قبيل الحرب العظمى، سنة ١٩١٣ وهناك سدت أبواب العودة في وجهه. فاضطر إلى البقاء في تلك البلاد الواسعة الشاسعة، حيث يجد أصحاب الهمم دائماً عملاً يرتزقون منه.

وجاكوبوفسكي من طائفة عرف أبناؤها بالنشاط في الأعمال، واقتناص المال حيث كان.

هو ابن «يعقوب كوهين» تاجر الخيول الذي كان منذ أربعين سنة خلت مسيطراً على أسواق الشرق من بورسعيد إلى حيفا إلى بيروت إلى حلب إلى أزمير وما وراءها.

أما جنسيته، أما وطنه، أما مسقط رأسه، فسر من الأسرار.

كان يعقوب كوهين يهوديًا بكل ما في هذه الكلمة من المعاني الظاهرة والباطنة. وقد بث في ولده تلك الروح التي تميز أبناء إسرائيل عن سواهم من البشر. فنشأ الابن على صورة أبيه، يهودياً أصيلاً لا وطن له غير الأرض التي ينزل فيها، والتي يجد فيها الدرهم الذي وقف حياته للبحث عنه.

مات الوالد فخلفه الولد في الأسواق. لكنه انتقل إلى ميدان غير الذي جال فيه أبوه وصال. فجعل يروح ويجيء بين الروسيا والشرق الأقصى، إلى أن فاجأته الحرب وهو في بتروغراد، فانتحل لنفسه اسم «جاكوبوفسكي» وفضل الإقامة في قصر الإمبراطور، يخدم خيول الأميرة أناستازيا، على التعرض لأخطار الحرب وأهوالها.

أما دخوله القصر ووصوله إلى الرتبة التي أنعم بها عليه فسر من الأسرار أيضاً!

***

ولا يدهشنك أن يلج الحب قلوب أولئك الذين لا يحبون غير المال، فهو جبار لا يقف في طريقه حائل. وإذا ما غزا قلباً قضى فيه على كل خصم مهما يكن عنيداً وأرغمه على الجلاء.

دخل جاكوبوفسكي إذن في خدمة الأميرة الروسية. فأحب بادئ الأمر جيادها. ثم انتقل حبه إليها فهام بها هياماً أفقده الصواب.

ظل مدة طويلة كتوماً لا يبوح بسره ولا يجرؤ على مكاشفة معبودته بحبه. لكنه ذات يوم أقدم على ما يقدم عليه المجانين - والحب يقرب أحياناً من الجنون - فانطرح على قدمي أميرته الحسناء، وطفق يبثها وجده وغرامه، ويفضي إليها بما يقاسيه من عذاب أليم، ويتوسل إليها أن تشفق عليه وترمقه بنظرة من عينيها الساحرتين.

ولم يعده إلى رشده غير قهقهة تجاوبت أصداؤها في أرجاء القاعة. فانتفض العاشق مذعوراً، وإذا به أمام خصمه في الغرام الكولونيل فولكونسكي الذي أرسل في الفضاء تلك القهقهة الساخرة.

أما الأميرة فكانت قد استقلت على مقعدها ضاحكة أيضاً، وقد عقلت الدهشة لسانها!

وقف جاكوبوفسكي في مكانه حيران كالمجرم الذي يفاجَأ متلبساً بجريمته.

فتقدم الكولونيل ورفع يده ولفح وجه «السايس» الجريء بسوطه فسالت منه الدماء.

ومرت بعد ذلك أيام وشهور وأعوام ملأى بالحوادث والدماء.

***

يوليه ١٩٢٩:

حمل البريد إلى الكولونيل فولكونسكي خطاباً فضه وقرأ فيه ما يلي:

«يا حضرة الكولونيل..

«بلغني أنك ما زلت تعلل النفس برؤية الأمير أناستازيا، التي يدعي البعض أنها لا تزال على قيد الحياة. فجئت برسالتي هذه أطلعك على أمور تجهلها: لقد ماتت الأميرة التي كنت تحبها موتاً لا شك فيه. واليد التي تخط هذه السطور هي التي أطلقت عليها الرصاص الذي مزق صدرها المرمري، وقد هاجت شجوني عندما رأيتها أمامي جثة هامدة، فشبهت ذلك الصدر والدماء متجمدة عليه بصفحة السماء وقد رصعتها النجوم في الليل، ولقد ضحك الرفاق كثيراً لهذا التشبيه البديع. لا تحمل نفسك إذن عناء البحث والسؤال. لم ينج أحد من مجزرة أوكاتننبورج، التي أُعدم فيها أفراد أسرة القيصر دفعة واحدة في نوفمبر سنة ١٩١٧. لقد أمرت بسجني لكنني فررت من السجن بفضل من كانت سلطته فوق سلطتك، بل فوق سلطة القيصر، بفضل راسبوتين العظيم. فرحلت عن بلاد يضرب فيها الناس بالسياط لأنهم يحبون. لكنني بقيت أتحين الفرصة للانتقام. وقد وجدتها عندما اندلعت نيران الثورة الشيوعية في الروسيا. لقد ساءك أن يحب جاكوبوفسكي الوضيع الأميرة الرفيعة المقام، وفاتك أن الحشرة تعشق النجم أحياناً. وجاكوبوفسكي الآن يهزأ بك

وبأمثالك من الأشراف، وهو يباهي بالأثر الذي تركه في وجهه سوطك اللعين. فمت كمداً بينما غريمك ينعم بالحياة الحلوة.

«جاكوبوفسكي»

«كومير الشعب في جبال الأورال»

فقرر فولكونسكي أن يدخل الدير

وهناك يقضي الراهب العاشق بقية أيامه، بين الحاضر وما فيه من بؤس وآلام، والماضي وما فيه من ذكريات.

«تم الكتاب»

الفهرس